الشباب العربي والمشاركة السياسية (٢)

ملف من إعداد وتقديم:
ياسين الحاج صالح

المشاركون
(ألفبائيًا)

- إيّاد العبد الله
- بكر صدقي
- حازم نهار
- حسام جزماتي
- خليل الحاج صالح
- رزان زيتونة
- سعاد جروس
- علي سفر
- ياسين الحاج صالح

الشابّ دارسُ علم الاجتماع، الذي تولّى صياغةَ استبيان حول ثقافة الشباب السوري السياسية، وكان من المفترض أن يفرِّغ النتائجَ ويقرأها منهجيّاً، اعتذرَ عن الاستمرار في التعاون مع مُعدّ هذا الملفّ. وكانت رزان زيتونة، المحامية والناشطة، التي شاركتْ في ندوة هذا الملفّ، قد استُدعيتْ إلى أحد أجهزة الأمن لأمرٍ يتعلّق بالاستبيان، وأُفهمتْ أنّها تَطْرح على الشباب أسئلةً لا ينبغي طرحُها.

لستُ مؤهَّلاً للأسف لتفريغ وقراءة ٨٠ ورقة استبيان وَصَلَتْني (واحدةٌ منها لشابّ في السادسة والأربعين، أيْ خارج النطاق العمري الذي حَدّده الاستبيانُ، وهو بين ١٨ و٣٢ عامًا). ولم أَسْعَ في الواقع وراء اختصاصيين آخرين لاختبار تعاونهم. كان من المفضَّل طبعًا لو أنّنا ضَمَمْنا إلى هذا الملفّ نتائجَ استبيانٍ علميّ. لكنّ لدينا، بدلاً من ذلك، واقعةً بالغةَ الدلالة على أمريْن: أولُّهما منبعُ عزوفِ الشباب السوري عن السياسة والاهتمام بالقضايا العامة؛ وثانيهما العلاقةُ بين العلم والسلطة في بلادنا.

السوسيولوجي الشاب واحدٌ من شبّان سوريين كثيرين انتَهَكَ الخوفُ حقوقَهم السياسية كمواطنين، وعَطَّلَ فرصَ تطوير نشاطهم التخصصي. إنّ سياسات المنع السهلة، التي لا تجيد «نخبةٌ» متواضعةُ المستوى غيرَها، مسؤولةٌ بصورة مباشرة عن الكُساح العلمي والتعليمي والثقافي الذي تعانيه سوريا اليومَ. وهي مسؤولة أيضًا عن إقصاء الجيل الشابّ من الاهتمام بالقضايا العامة في مجتمعٍ فتيّ، قرابة ٤٠٪ من سكّانه دون الخامسة عشرة. بعبارة أخرى، قد يكون بين خُمْسٍ ورُبْعِ السوريين (أقلّ بقليل من ١٨ مليون نسمة عام ٢٠٠٤) شبّانًا ضمن النطاق العمري الذي حَدّده الاستبيانُ، أيْ حوالي ٤ ملايين.

على أنّ عزوف الشباب السوري عن العمل العامّ لا يرتدّ إلى «السياسة» وحدها، وما يرتبط بها من خوف ورهبة. وهكذا تحاول ندوةُ هذا الملف والمقالاتُ الخمسةُ فيه أن تقرأ العزوفَ ومظاهرَه وأسبابَه. لكنْ يبدو لنا أنّ جانبًا من ابتعاد الشباب عن السياسة هو أزمةُ السياسة الحزبية وأزمةُ الحزب السياسي. إنّ الحزب/ الطبقة/ الإيديولوجية/ السلطة، الحزب/ الوعي أو الحزب/الذات، لم يَعُد إطارًا مناسبًا لحيوية الجيل الشابّ. إنّ الحزب الذي يُفترض أنّه يمثِّل طبقةً، ويعبِّئ الأنصارَ، ويرسم سياسته بناءً على إيديولوجيةٍ بالغةِ التحديد، وهدفُه البدهيُّ هو الوصولُ إلى السلطة، هذا الحزب يَبْدو خارج حساسية الزمن المحلي والعالمي الراهن وآفاقهما. المطابقةُ بين الحزب والسياسة لم تعد شيئًا بدهيّاً، والمطابقةُ بين السياسة والشأن العامّ كذلك كفّتْ عن كونها شيئًا بدهيّاً. حين يعبِّر الشابُّ السوري عن امتعاضه من الأحزاب السياسية الموجودة فإنّ موقفه هذا ربما يموِّه أزمةَ الحزب السياسي كمفهوم. هذا الموقف السلبي لا يزال منفصلاً عن ابتكار صيغ أخرى للتدخُّل في الشأن العامّ والاستحواذ على هذا المجال.

تُسلِّط المقالاتُ المجمَّعة هنا بعضَ الأضواء على تجاربَ للشباب السوري في «التسلُّل» نحو المجال العامّ وتملُّكه. ويُمْكن القولُ إنّ تاريخ السنوات الأخيرة هو تاريخُ محاولاتٍ شبابيةٍ متعددةِ الأشكال (شباب جامعة حلب، شباب داريّا، مجموعات متنوّعة قصيرة العمر في حلب ودمشق بخاصة...)، لكنْ مجهضة بعنف متفاوت، لتملُّكِ المجال العامّ. وللأسف لا يزال يصحّ القولُ إنّ الشباب السوري لم يحقِّق اختراقًا في هذا الصَّدد.

أردنا لهذا الملفّ أن يكون مساهمةً متعددةَ المقاربات لقضية الشباب والسياسة في سوريا. ودون أيّ اصطناع للتواضع نقول إنّه مجرّدُ بدايةٍ بسيطةٍ لطَرْقِ هذه القضية الحيوية، بل المصيرية. ولا نشكّ في أنّ بعض التقديرات والأحكام والاقتراحات الواردة فيه قد تَخْضع لتعديل متفاوت لو أتيحتِ الفرصةُ لنقاشٍ عامّ حرّ وعلنيّ حول الشأن الشبابي السوري. حاولْنا، إذنْ، أن نضع في يد الشباب السوري مادةً يستندون إليها، أو إلى نقدِها والاعتراضِ عليها، للتدرُّب على الشأن العامّ و«العمل في السياسة.»

أَخْتم بالشكر لمجلة الآداب التي أتاحت لسوريين، شبابٍ وكهولٍ، أن يفكّروا على صفحاتها في شأنٍ يقول الكثيرَ عن حاضرهم ويهمّ كثيرًا مستقبلَهم.

دمشق

التنشئة السياسية للشباب السوري: المحدِّدات والاتجاهات

حازم نهار

تقديم

تسعى هذه الدراسة إلى مقاربة العوامل التي تشكّل وعيَ الشباب السوري وهواجسَهم وطموحاتهم. ولهذا الأمر أهميةٌ كبيرةٌ، إذ يَسْمح لهم وللمعنيين بأوضاعهم ـ أحزابًا ومؤسساتٍ وجمعياتٍ ومَراكزَ ثقافية ـ برصد الأسباب الكامنة وراء واقعهم الحالي.

وإذا كنّا قد عَنْونّا هذه الدراسةَ بـ «التنشئة السياسية للشباب» فلقناعتنا بأنّ السياسة، بمفهومها العامّ والشامل، هي المحورُ الناظمُ لمجمل الحياة الفردية والعامة... حتى لو كان الأفرادُ يُنْكرونها، ويَنْفون علاقتَهم بها.

لكنْ تقف أمام دراسات كهذه، خاصةً في سوريا، عقباتٌ عديدةٌ. لعلّ أبرزَها هو عدمُ توافر الإحصائيات والدراسات الميدانية الجادّة، بما يَجْعل السيرَ في مثل هذه الأبحاث كالحديث في العموميات التي تَصْلح على أيّ شريحة أخرى في المجتمع السوري، بل وفي مجتمعاتٍ أخرى شبيهة، أو تصبح الاستنتاجاتُ أقرَب ما تكون إلى المشاهدات الشخصية والذاتية. ومع ذلك نأمل أن تشكّل هذه الدراسةُ مقاربةً أوليةً لدراسات أكثرَ عمقًا تعتمد العملَ الإحصائي، أو مقدمةً نظريةً تحتاج إلى الاختبار واقعيّاً.

I ـ مفاهيم أولية

• **السياسة:** هي مجملُ ما يتعلّق، تفكيرًا وممارسةً، بالشأن العامّ. وهي، من هذا المنطلق، كالهواء الذي يحيط بنا ونتحرك داخله. إنّها عاملٌ وثيقُ الصلة بكلّ مظاهر الفعل الإنساني، سواءٌ أأحببنا ذلك أمْ كرهناه. أما الإيديولوجيا السياسية فهي تلك القواعدُ الذهنيةُ المتبطّنة في سلوك الأفراد والقيم السائدة في الحياة اليومية في المجتمع، والتي تُنتج سلوكًا سياسيّاً محدَّدًا عند الفرد.

• **مرحلة الشباب:** هناك اختلافٌ واسعٌ في تحديد هذه المساحة الزمنية. فبعضُهم يَقْصرها على المرحلة الممتدة ما بين نهاية المراهقة ونهاية الدراسة الجامعية، أيْ ما بين ١٧ و٢٤ سنة وسطيّاً. وهناك مَنْ يوسّع إطارها. لكنْ ما دمنا لسنا بصدد دراسة ميدانية إحصائية، فإنّه يُمْكن أن نقول بصفة إجمالية إنّها الفترة الواقعة بين نهاية المراهقة وبلوغ مرحلة النضج.

من السمات البارزة في هذه المرحلة الافتقارُ إلى التوازن والاستقرار، إذ تنطبع بشكل من أشكال الاضطراب والتذبذب، الأمرُ الذي يجعل من الشباب الفئةَ الأكثرَ عرضةً للصراعات والإحباطات. وأسبابُ ذلك عديدة، منها أنّ مرحلةَ الشباب هي الميدانُ الحيويُّ الذي تتصارع فيه وعليه جميعُ المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع. ومنها أيضًا ما يعود إلى ما يعتري تلك المرحلةَ من رغباتٍ فيزيولوجيةٍ مشحونةٍ بالتوتّرات الداخلية، التي تختلف حدّتُها بحسب نظامِ القيم السائدة في المجتمع وطبيعةِ الممنوعات والمسموحات.

السمة البارزة الأخرى، والمرتبطةُ بالضرورة بالسمة السابقة، هي البحثُ عن الطمأنينة النفسية. فالحاجة إلى خفضِ التوتر النفسي، وتحديدِ الهوية والانتماء، وتأكيدِ الذات، والرغبةِ في الاستقلال، عواملُ ضاغطةٌ خلال هذه المرحلة. وهذا كلُّه يدفع الشبابَ إلى البحث عن الموقع والدور الملائمَيْن، وإلى الانخراط في مشاريع متنوعة لتحقيق هذه الحاجات.

• **التنشئة الإيديولوجية ـ السياسية:** ويُقصد بها تشكيلُ الوعي السياسي، أيْ مجملُ العمليات التي يتمّ من خلالها إكسابُ الفرد سلوكًا ومعاييرَ واتجاهاتٍ سياسيةً متناسبةً مع أدوار مجتمعية معينة، حتى لو لم يمارسْ نشاطًا سياسيّاً في حزب أو جمعية أو اهتمامًا بالشأن العامّ. وتكون هذه العملية مستمرةً منذ الولادة وحتى الممات. وتُعدُّ مرحلةُ الشباب من أهمّ مراحل التنشئة الإيديولوجية السياسية بحكم السمات العامة لهذه المرحلة؛ فخلالَها تبدأُ بالتكون مواقفُ الفرد السياسية، وقيمُه الاجتماعية، وأنماطُ سلوكه الاجتماعي ـ السياسي.[١]

١ ـ محمد قاسم عبد الله، «التنشئة الاجتماعية للتفكير السياسي،» مجلة **الفكر العربي**، عدد ٩٧، صيف ١٩٩٩، ص ١٨١.

التنشئة السياسية للشباب السوري: المحدِّدات والاتجاهات

II ـ عوامل التنشئة السياسية عند الشباب السوري

تَلْعب عواملُ عديدةٌ في تشكيل الوعي السياسي عند الشباب السوري. بعضُها ذاتيٌّ خاصٌّ بالفرد، كالجنس والذكاء والخبرات الذاتية والوضع النفسي. وبعضُها موضوعيٌّ قائم منذ ولادة الفرد، كالفئة الاقتصادية الاجتماعية التي ينتمي إليها، والانتماءِ الجغرافي (ريفي، مديني). وبعضُها الآخر موضوعيٌّ بحكم طبيعة المجتمع والمناخ العامّ السائد فيه ـ وتُعتبر هذه الأخيرةُ الأهمَّ بالطبع، لكوننا نتحدث عن الإطار العامّ الناظم لتشكيل الوعي السياسي.

الجدير ذكرُه أنّ كثيرًا من الشباب السوري يكاد لا يَعْرف شيئًا عن «قانون الطوارئ.» وليس عنده أدنى اطّلاع على دستور بلاده. ولا يَذْكر إلاّ أسماءَ عددٍ محدودٍ من الوزراء وأعضاءِ مجلس الشعب. ولا يَعْرف موقعَ مدينة «القنيطرة» السورية. كما لا يَعْرف متى احتُلّتْ هضبةُ الجولان، وهل عادت كاملةً إلى سوريا. وليس لديه اطّلاعٌ على المكوّنات البشرية للشعب السوري. ويستغرب قسمٌ كبيرٌ عندما يَسْمع أنّ الأكراد يشكّلون ١٠٪ من هذا الشعب. ولا يَعْرف الغالبيةُ منهم حقوقَهم الطبيعية، ويَنْظر إلى ما يجري من تجاوزات لهذه الحقوق على أنّه أمرٌ طبيعي. فما هو السرّ في ذلك؟

أ ـ العائلة السورية: ما زالت العائلةُ نواةَ التنظيم الاجتماعي، إذ تتمحور حولَها حياةُ الأفراد، بصرف النظر عن النمط المعيشي (مدني، ريفي،..) والوضع الطبقي والانتماءاتِ الطائفية والإثنية. ذلك أنّ العائلة السورية هي الوسيطُ بين الفرد والمجتمع، والمؤسسةُ التي يتوارث منها الأفرادُ انتماءاتهم المختلفة ـ بما فيها في معظم الأحيان الانتماءاتُ الثقافيةُ والسياسيةُ.

تَزْرع العائلةُ السوريةُ (كسائر العائلات العربية) في أفرادها مجموعةً من القيم السلبية التي تؤثّر في سلوكهم وشخصياتهم. وهكذا يتعلّم الفردُ منذ مرحلة الطفولة قيمَ الطاعةِ والخجلِ والمسايرة؛ ذلك لأنّ هذه العائلة ـ من جهة ـ محكومةٌ بالسلطة الأبوية القائمة على ثنائية الاستبداد/الرضوخ، ولأنّها ـ من جهةٍ ثانيةٍ ـ قائمةٌ على تمجيد الذكورة، مستمدَّةً مشروعيَّتَها في ذلك من الدين والتقاليد الاجتماعية.[١] يضاف إلى ذلك، بحُكْم ما تعرَّض له المجتمعُ السوريُّ خلال العقود الثلاثة الأخيرة على الصعيد السياسي، أنّ العائلة السورية تقوم بنقل الخوفِ المتوارَثِ إلى أبنائها، وتَلْعب دورًا داعمًا لاستمرار العلاقات الاستبدادية في المجتمع بكافة تجلّياتها، الدينيةِ والتعليميةِ والسياسية... إلخ. وهذا يعني أنّ تربيةَ الفرد داخل هذه العائلة يتشارك فيها الدينُ والتقاليدُ الاجتماعيةُ والسلطةُ السياسيةُ بشكلٍ متناغم.[٢]

ب ـ نظام التعليم المدرسي والجامعي: لا يوجد فرقٌ بين المدرسة والجامعة من حيث نهجُ التعليم السائدِ فيهما. فهذا الأخير يقوم أساسًا على التلقين، فيُسهمَ في تعميق قيم الطاعة والخوف والتفكير الغيبي والأوهام والأساطير، بدلاً من قيم التمرّد والتغيير والشجاعة والتفكير العلمي.[٣] والحال أنّ الكِتابَ المدرسي ما زال يحتلّ مكانةً بارزةً في التعليم، وهو الأداة الأساسية في تنفيذ المنهاج المقرَّر؛ في حين أنّ النُّظُم التعليمية الحديثة لا تركِّز على تدريب الطفل لحفظ مضمون تلك الكتب، بقدْر ما تتّجه نحو تنمية قدراته على الإدراك والتفكير والتفاعل معَ الواقع.

تفتقر العمليةُ التعليميةُ في سورية إلى تدعيم المفاهيم الحديثة عن الحياة والطبيعة والتاريخ، الأمرُ الذي يجعل هذه العلومَ المختلفةَ مفصولةً في ذهن الطالب، ويمنعه ذلك من تشكيل رؤيةٍ

---

١ ـ هشام شرابي، **مقدّمات لدراسة المجتمع العربي** (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥)، ص ٢٧ ـ ٦٤.

٢ ـ طلال عبد المعطي مصطفى وعدنان أحمد مسلم، «ثقافة الشباب السوري،» مجلة **الفكر العربي**، شتاء ٢٠٠٠، عدد ٩٩، ص ٥.

٣ ـ مصطفى حجازي، **سيكولوجية الإنسان المقهور** (بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٠، الطبعة الثانية)، ص ١٤٥.

التعليم يقوم على التلقين، فيُسْهم في تعميق قيم الطاعة والخوف والتفكير الغيبي بدلاً من قيم التمرُّد والشجاعة والتفكير العلمي

عامةٍ منسجمةٍ مع العصر، فيبقى حاملاً في رأسه قوانينَ علميةً مجزوءةً إلى جانب غيبيات تتناقض معها. أما من حيث مضامين المواد التدريسية، فما زالت هي الأخرى مقطوعةَ الصلةِ عن العصر والحاجات الواقعية: فاللغة العربية مثلاً ما زالت محكومةً بالنصوص التراثية، ولا يَظْهر منها إلاّ وجهُها الأدبي. ففي المرحلة الابتدائية، أيْ مرحلةِ تفتُّح الطفل وفضولِه وحيويّتِه، يجري إرهاقُه بتعلّم أساليب لغوية وثقافية لعصر آخر. وهكذا يعاني الفردُ منذ البدء تجربةَ الفصل بين التعلّم والفهم، ويصبح الاستظهارُ بدون فهمٍ الوسيلةَ الأولى لتمثُّل الأفكار والقيم.

أمّا دراسةُ وتدريسُ التاريخ فيفتقران إلى عوامل الموضوعية والتحليل المنهجي للأحداث، وهو تحليلٌ لا يهتمّ بمعرفة **أخبار** الماضي بقدْر ما يهتمّ **بمنطق** الأحداث والواقع. فمثلاً يجري تدريسُ المحطّات الهامة في التاريخ بوصفها نتيجةً لمؤامراتٍ محبوكةٍ. وأحيانًا نكون أمام فترات زمنية معيّنة لا نَعْلم عنها شيئًا، لكونها مازالت تتعلّق بالسلطة القائمة أو بمصالح بعضِ المتنفّذين. والحال أنّ دراسةَ التاريخ بالطريقة الموصوفة لا تَسْمح بنموّ عقليةٍ موضوعيةٍ تتبنّى التفسيرَ العلميَّ للواقعةِ التاريخية، بما يعني أيضًا عدمَ القدرة على قراءة الأحداث الواقعية وتفسيرِها تفسيرًا صائبًا، وعدمَ القدرة على النظر إلى المستقبل بشكلٍ صحيح لمعرفة الدور المطلوب وكيفية تغيير الواقع.

كذلك الأمرُ بالنسبة إلى تدريس مادة التربية الدينية. فهذه التربية تقوم في سوريّة، أساسًا، على تعليم الطقوس الدينية والمعارفِ عن العالم الآخر والرؤى الخرافية عن الآخرين، بدلاً من توسيع ميدانها لتَشْمل الإنسانَ وتعزيزَ منطق التسامح الديني وتجديدَ الفكر الديني ليَنْسجم مع مقتضيات العصر.[١]

ويزيد الأمرُ سوءًا مع السيطرة الكليّة للسلطة على المؤسسات التعليمية. فقد أضافت السلطةُ عددًا من المقرَّرات بدءًا من المرحلة الابتدائية وحتى الجامعة: كالتربية العسكرية، والتربية الوطنية أو القومية، والثقافة القومية الاشتراكية التي تَهْدف إلى تحقيق تعبئةٍ واسعةٍ بإيديولوجية الحزب الحاكم وحسب.

ثم إنّ فصل المدارس في المرحلتين الإعدادية والثانوية إلى «مدارس ذُكور» و«مدارس إناث» يضع المراهقين في وجهِ محرّماتٍ اجتماعيةٍ ورسمية، الأمرُ الذي يَسْمح بقيامِ تصوّراتٍ وهميةٍ ومشوّهةٍ لكلّ جنسٍ عن الآخر، ليصل الأمرُ بهم في الجامعة إلى إقامة علاقاتٍ عاطفيةٍ مَرَضيّة، أو غيرِ سويّة من الناحية الجنسية أحيانًا.

هذا من جهة. ومن جهة أخرى تبدأ عمليةُ تطويع الفرد على مستوى الوعي من خلال «منظمة الطلائع» التي تأسَّستْ في العام ١٩٧٤ . ففي كلّ مدرسة يوزَّع التلاميذُ في فِرَقٍ ووحدات، ليتمّ تليقنُهم إيديولوجيةَ الحزب، وهذا ما يَجْعلهم ينتقلون بشكلٍ غريزيّ نحو تقبُّل أشكال التطويع الأخرى.[٢]

في المرحلة الإعدادية ينسَّب الأفرادُ إلى «اتحاد شبيبة الثورة،» وهي منظمةٌ رديفةٌ لحزب البعث وتأسَّستْ عامَ ١٩٦٣، ليصبح التنسيبُ إلى الحزب أمرًا روتينيًا في بداية المرحلة الثانوية، دون أيّ نقاش أو حوار وفي غياب أيّ تقديرٍ لطبيعة المرحلة التي يمرّ بها الفردُ ـ وهي مرحلةٌ لا تؤهّله في ذلك الوقت لاتخاذ قرار بالانضمام إلى حزب سياسي أو تبنّي رؤية فكرية سياسية محدّدة. والحق أنّ عاملَ الخوف الذي تَنْقله العائلةُ إلى أبنائها، بحكم خبرتها الماضية بالسلطة وآلياتها؛ وعاملِ رَهْن التوظيف والسفرِ والوضعِ الشخصيِّ للفرد بالبعثيين؛ وعاملَ الإغراء

١ ـ حازم نهار، **التأخر في المجتمع العربي/دراسة تحليلية نفسية** (بحث علمي لنيل شهادة MD في الطب البشري، فصل: «طرائق تدريس المواد التعليمية»)، (بيروت: دار الينابيع، ١٩٩٤).

٢ ـ تميم وماجد، «أوضاع الشباب السوري،» فصل من كتاب **حقوق الإنسان والديموقراطية في سورية** (منشورات أوراب واللجنة العربية لحقوق الإنسان: فيوليت داغر وآخرون، ٢٠٠١)، ص ٣٩١.

التنشئة السياسية للشباب السوري: المحدِّدات والاتجاهات

بإضافة عدد من العلامات إلى المجموع العامّ في الثانوية للحزبيين والشبيبيين والصاعقة والمظليّين... كلُّها تساهم في دفع المتردّدين إلى الانتساب إلى الحزب في مرحلة لاحقة.

في الجامعة، يُرْصد الطالبُ منذ اللحظة الأولى؛ فانتسابُه إلى الجامعة يَقْترن بتقديمه استمارات عديدةً توزَّع على الفروع الأمنية. ثم يجد «الاتحادَ الوطنيَّ لطلبة سوريا» في انتظاره، بعد أن أصبح هذا الاتحادُ هو الآخرُ إلزاميّاً وتابعًا للحزب الحاكم. تُضاف، إلى ذلك، دروسُ التدريب العسكري والمعسكرات الصيفية. وتتضافر، من ثم، جهودُ اتحاد الطلبة، ومقرّاتِ التدريب العسكري، والفرقِ الحزبيةِ المتناثرةِ في جميع الكليات، لإكمالِ دائرةٍ مغلقةٍ نادرًا ما يُفْلِتُ منها أحد.

نشير أيضًا إلى أنّ بعضَ عناصر الهيئات الإدارية يكلَّفون بمهامّ أمنية لرصدِ أوضاع الجميع. أما علاقة الطلاب بـ «الاتحاد» فهي علاقة تجنُّب، إذ لا يساهم في نشاطاته وفعاليته سوى عددٍ محدودٍ منهم؛ ويَظْهر ذلك في المؤتمرات الطلابية التي تَفْتقر إلى أيّ مبادرة جدّية تجاه مشاكل الطلاب والنظام التعليمي بشكل عامّ. وأما النشاط السياسي للتيارات والأحزاب السياسية الأخرى في الجامعة فهو شبهُ معدوم، بموجب ميثاق «الجبهة الوطنية التقدمية» الذي يحظّر العملَ في صفوف الطلبة والجيش.

واختصارًا، فإنّ الطالب الجامعي السوري (والعربي عامةً)، بدلاً من أن يتمتع بفترةٍ نموذجيةٍ بحكم انفلاته النسبي من العائلة، يَصْطدم مجددًا بمؤسساتٍ أقوى، وبآلياتٍ تعليميةٍ مرهِقةٍ، وبهيئةِ تدريسٍ تفتقد الكفاءاتِ المطلوبة.[1]

ج ـ المؤسسات الوسيطة (النقابات والاتحادات): تُخرِّج الجامعاتُ السوريةُ ألوفَ الشباب الذين يَحْملون شهاداتٍ لا عِلْمَ فيها، ولا يتوافر لهم فرصُ العمل المناسبة. وحتى في حال توافُر الفرص يكتشف الشبابُ المتخرِّجُ حديثًا المفارقاتِ العديدةَ بين ما تَعَلَّمه والعملِ الذي يمارسه. ويقترن التخرُّجُ بالانضمام إلى المؤسسات الوسيطة (النقابات، الاتحادات) التي تعبِّر، هي الأخرى، عن القيم الرسمية السائدة.

والحقّ أنّ النقابة، بحُكْم الآليّات السائدة فيها وفسادِ عناصرها القيادية، جَعَلَتْ أعضاءَها (الشبابَ على الأخص) ينفضّون عنها ولا يستذكرونها إلا في الأوقات التي يحتاجون فيها إلى بعض الأوراق التي تُعِينهم على مزاولة المهنة أو السفر. ويتعامل الشباب مع النقابة بوصفها إحدى مؤسّسات الدولة، بل ومؤسّسةً ملحقةً بحزب البعث، ويعتبرون ذلك أمرًا طبيعيّاً. أما فكرة استقلالية النقابة عن السلطة وأجهزة الدولة، فهي خارجةٌ عن تصوُّراتهم بحكم سنوات الإعداد الطويلة التي تعرّضوا لها قبل الانتساب إلى النقابة، وبحُكْم أنّ معظم الشباب السوري خلال ربع القرن الأخير لا يَعْرف شَيئًا عن آليّات العمل النقابي السويّة، أو عن تاريخ النقابات السوريّة التي حُلَّتْ من قِبل السلطة في نيسان (أبريل) عامَ ١٩٨٠، ولا عن اعتقال عدد من أعضائها الناشطين. كما لا يَعْرف معظمُ الشباب أنّ النقابات أعيدتْ إلى العمل في منتصف عام ١٩٨١، ولكنْ بعد إلغاء قوانينها التنظيمية ونُظُمِها السابقة التي صَدرتْ عامَ ١٩٧٣، واستحداثِ قوانينَ جديدةٍ متخلِّفةٍ عن سابقتها تكبِّل النقاباتِ وتَسْمح بإلحاقها بالسلطة.

ولا يقف الأمرُ عند هذا الحدّ. ذلك أنّ التدخل المباشر للسلطة في العمل النقابي، وتكليفَ النقابة بمهماتٍ أمنيةٍ بغيةَ ضبطِ إيقاع أعضائها وتهديدِهم بوسائل عيشهم ومحاصرتِهم مهنيّاً إنْ لزمَ الأمر... كلّ ذلك أَفْسح المجالَ لظهور قيادات نقابية فاسدة زادت الأمرَ سوءًا، وفاقمتْ من ابتعاد الشباب عن نقاباتهم.

د ـ وسائل الإعلام المحلية والعالمية: جرى تكريسُ الإعلام السوري على مدى عقود من أجل الدعاية للسلطة والحزب الحاكم. فراح هذا الإعلامُ يتّخذ طابعَ التحشيد الذي يَفْتقر إلى

١ ـ محمد سبيلا: «الشباب والإيديولوجيات،» مجلة **الوحدة**، عدد ٣٩ كانون الأول ١٩٨٧، ص ١٧ ـ ٢٢.

يُعتبر إحساسُ اللامبالاة هو الاتجاه السائد لدى الشباب السوري، وهو يتلازم مع حالةٍ من التشظّي على مستوى القناعات الفكرية والسياسية

أيّ شكلٍ من أشكال النهوض بوعي الفرد، والارتقاءِ بوجدانه الإنساني وحسّه الوطني، وتقديمِ المعرفة والتنوعِ الخلاّق والمتعةِ في آن واحد.

والحال أنّ احتكار وسائل الإعلام، وتأميمَ الأفكار والآراء، وممارسةَ سياسة التعتيم الإعلامي، كلّ ذلك جعل المجتمعَ هزيلاً، وعَمّقَ حالةَ اللامبالاة عند الناس، وتَرك أثرًا واسعًا في طرق تعبيرهم التي استندت إلى الاصطناع في تقديم البرامج وإجراء الندوات والمقابلات التلفزيونية: فكلُّ شيء مُعَدٌّ سلفًا، السؤالُ والجواب، وكلُّ شيء تحت الرصد والسيطرة. وتكفي متابعةُ برامج الأطفال (برنامج طلائع البعث) وبرامج الشبيبة والطلبة لنَعْرف إلى أيّ مدًى جرى نزعُ الحالةِ العفويةِ في التعبير.

لمْ يتغيّر الإعلامُ خلال السنوات الخمس الأخيرة، ومازال قائمًا على مجموعة المرتكزات التي تنتمي إلى الماضي: فالجرائد هي هيْ، والتلفزيون ما زال على حاله البائسة بآليّاته وبرامجه ووجباته الإعلامية الفقيرة، على الرغم من التطور الهائل في الإعلام. غير أنّ هذا التطور سَمَحَ للشباب السوري بتوسيع دائرة معارفهم وإيجادِ طرائقَ تعبيرٍ خاصةٍ بهم من خلال مواقع الإنترنت العديدة على الأخصّ، لكنّه لم يَسْمح لهم إلى الآنَ بتكوين اتجاهات عامة ورؤًى محدّدة، في الوقت الذي تزداد فيه حاجتُهم إلى الانتماء وإلى تشكيل اتجاهاتهم الخاصة في هذا العالم المعقّد والمتشابك والمليء بالأفكار المختلفة.

هـ ـ المناخ السياسي العامّ: خلال العقود الأربعة الأخيرة جرى تقزيمُ الحياة السياسية، لتقوم تدريجيّاً على حزبٍ واحد ولاعبٍ واحد وسيطرةٍ أحادية وشاملة على كلّ مقوّمات ونشاطات الحياة المجتمعية والمدنية والإعلامية وغيرها، دون منافسة أو رقابة على ما يجري، خاصةً مع وجود المادة الثامنة من دستور عام ١٩٧٣ التي أكّدتْ أنّ «حزبَ البعث العربي الاشتراكي هو الحزبُ القائدُ للدولة والمجتمع، ويقود جبهةً وطنيةً تقدميةً تَعْمل على توحيدِ طاقاتِ جماهير الشعب في خدمة الأمة العربية.»

يضاف إلى ذلك أنّ «ميثاق الجبهة،» الذي وَقّعته الأحزابُ آنذاك، وتعهّدْت فيه باستبعاد الطلاب/الشباب من دائرة نشاطها، كان بدايةَ نهايةِ تلك الأحزاب، خاصةً مع حرمانها من فتح مقارّ رسميةٍ لها، ومن الإعلانِ عن برامجها ونشاطاتها، ومن إصدار صحافة حزبية حقيقية، ليصبح معظمُها تدريجيّاً مؤسساتٍ متخشبةً لا تَمْلك إلاّ عددًا محدودًا من الكوادر الهرمة.

هذه الآليّات حَوّلتْ مؤسساتِ الدولة والمجتمع إلى «مَساكن» لا تحتوي على أيّ شكل من أشكال الحياة المنتِجة، وأعادت صياغةَ البشر ليكونوا، في معظمهم، دون طموح وملامحَ وتمايزٍ، ولتصبح البلادُ أمام مشكلة سياسية ـ أخلاقية / إنسانية تعيد إنتاجَ نفسِها في كلّ اللحظات والمجالات.

هذا المناخ السياسي أثّر، ولا يزال، في الاتجاهات السياسية والحياتية للشباب السوري، وفي نموّهم الروحي والقيمي. ويُعتبر إحساسُ اللامبالاة الاتجاهَ السائدَ، وهو يتلازم مع حالة من التشظّي على مستوى القناعات الفكرية والسياسية، حالةٍ من الآراء والتصورات الشبابية التي لا يَجْمعها جامعٌ. والحق أنّ هذا الاتجاه موجود خارج صفوف حزب البعث وداخله أيضًا: فالمنتمون إلى الحزب غالبًا ما ينقطعون عن حضور اجتماعاته، ويَحْضرون عندما يتحوّل الأمرُ إلى مشكلة حقيقية في حياتهم، أو من أجل دفع الاشتراكات المالية المتراكمة. هذا السلوك إزاء الحزب لم يكن كذلك خلال الثمانينات مثلاً؛ فقد كانت تترتّب على عدم الحضور إجراءاتٌ شديدةٌ، كالاستدعاءات المتوالية من قبل الأجهزة الأمنية. ويعبّر اتجاهُ اللامبالاة عن نفسه بأشكال عديدة، كالرغبة في الهجرة، أو الرغبةِ في تحقيق المصالح الفردية بأيّ طريقة كانت، أو سيادة القيم الاستهلاكية.

أما الموجودون داخل أحزاب «الجبهة» فعددُهم محدودٌ، وهم موجودون بحكم وجود آبائهم أو أقاربهم فيها (إذ نادرًا ما ينتمي الشابُّ إلى حزبٍ غيرِ الذي ينتمي إليه والدُه). وغالبًا ما يكون نشاطُهم مقتصرًا على الفعّاليّات الأدبية والفنية

التنشئة السياسية للشباب السوري: المحدِّدات والاتجاهات

والاجتماعية وأعمال الكشّافة. وبحكم سيطرةِ ما هو سياسيٌّ على كل مجالات الحياة، فإنّ مثلَ تلك النشاطات لا تكون منتِجةً، ولا تتضمّن جوانبَ إبداعيةً حقيقيةً على صعيد الفرد أو المجتمع. فانعدام المناخ الديموقراطي وثيقُ الصلة بعدم وجود سينما حقيقية أو مسرح جادّ أو نشاط فني أدبي ذي قيمة من أيّ نوع، ومن ثم تغدو مثلُ هذه النشاطات مجردَ أشكالٍ لتفريغ الحيوية المكبوتة عند الشباب. وبشكلٍ عامّ فقد لعبت الأحزابُ السياسيةُ على اختلاف مواقعها وانتماءاتها دورًا سلبيّاً في حياة أفرادها. ذلك أنّ الشعارات الكبيرة، وتقديسَ الجماعة إلى درجة إلغاء أيّ قيمة للفرد تجاهها، حوّلت الأفرادَ إلى دمًى، وأنتجتْ تشوُّهاتٍ على صعيد الفرد والجماعة في آن معًا.

هناك اتجاهٌ آخرُ عند الشباب يَبْرز في تصعيد انتمائهم إلى العائلة أو العشيرة أو الطائفة أو الأقلية القومية، على حساب الهوية الوطنية السورية. فهناك بعضُ الجمعيات ذات النشاط الخيري والاجتماعي توفِّر مثلَ هذه الفرصة للشباب: كالجمعية الشركسية، والجمعيات المسيحية والإسلامية، والجمعيات الخاصة بالأقليات الدينية (مثل «المجلس الأعلى الإسماعيلي»)، فضلاً عن الجمعيات التي تقوم على مستوى العائلات بهدف المشاركة في حلّ بعض الأزمات المادية الخاصة بالشباب.[1] أما الاتجاه الديني فهو عظيم الحضور، وقد لعبتْ كلُّ العوامل التي ذكرناها سابقًا في توسيع انتشاره. وهو متفاوت في حدّته: بدءًا من القناعات الدينية البسيطة، مرورًا بالاتجاهات الدينية الإصلاحية، والاتجاهات الدينية التقليدية غير السياسية، وصولاً إلى التيارات الإسلامية المتطرفة (وهو الاتجاه الأكثر اتساعًا، خاصةً بعد كلّ التطورات الحاصلة في المنطقة).

عمومًا يجد الشبابُ السوريُّ نفسَه اليومَ في حالة تخارجٍ مع ما يحيط به، أو رفضٍ لكلِّ ما يُعرض عليه، ولا يكاد يقيم وزنًا لما هو موجود من أحزاب سياسية، خاصةً في ظل قصور خطابها السياسي لغةً ومحتوى، وعدم وجود أشكال إبداعية جديدة من الممارسة السياسية، ومع استمرار التيارات السياسية التقليدية التي تتنافس على استقطابهم.

III ـ الشباب السوري والدور المطلوب

تقف اليوم جميعُ القوى السياسية (البعثية والناصرية والماركسية والإسلامية)، وجميعُ التيارات الفكرية (الحداثية والتراثية والتوفيقية)، عاجزةً أمام الفئة الأوسع من الشباب السوري، أي الشباب الذين لم يحدِّدوا خياراتِهم وانتماءاتِهم بعد. فما عاد أحدٌ قادرًا على استقطابهم وإغرائهم، خاصةً مع هذا التطور الهائل في العلوم والتكنولوجيا والتغيرات العالمية المتسارعة. وأكثرُهم يقف اليومَ حائرًا أمام أحواله، متردِّدًا في خياراته، ومشوَّشًا في انتماءاته، وعاجزًا عن التقدّم باتجاه تحسين أوضاعه الاقتصادية، ومليئًا بالهواجس وعدم الاطمئنان تجاه المستقبل.

هذه الأحوال تتطلّب مبادرةَ الشباب أنفسهم، وسعيَهم إلى بلورة خياراتهم ورؤاهم، ومحاولةَ تجديدِ ما هو موجودٌ، أو إبداع أشكالٍ جديدةٍ للتعبير عن أنفسهم، والمشاركة في تحسين أوضاعهم، فيكون لهم دور في بناء وطنهم. والحقّ أنّ هذا الدور قد يكون هو الأكثرَ أهميةً والأشدَّ حسمًا في مستقبل وطنهم.

حازم نهار
كاتب سوري.

١ ـ تميم وماجد: «أوضاع الشباب السوري،» مرجع سابق.

الشباب الجامعي السوري: محاولة تصنيف

إيّاد العبد الله

I ـ تقديم

إذا كانت السياسةُ في أحد تعريفاتها هي الاهتمامَ بالشأن العامّ، فإنّ إقصاءها هو إلغاءٌ لهذا الشأن وتشجيعٌ لثقافة الكانتونات التي هي ثقافة إقصائية وجهادية بامتياز. وهو ما سوف يَجْتهد هذا المقالُ في عرضه من خلال رصد بعض مظاهرِ «النزوعِ الكانتونيِّ والجهاديِّ» للشباب في الجامعات السوريّة.

II ـ صور جامعية

• **أولاً:** يكاد لا يوجد في الجامعة أيُّ نشاط سياسي، ولا حتى لحزب البعث الذي تقف أبنيةُ فروعِه وشُعَبه وشعاراتِه للتذكير فقط بأنّه مازال موجودًا. ولكنْ في السنوات الأخيرة قامت بعضُ النشاطات من قِبل مجموعةٍ من الطلاب، وخصوصًا في جامعة حلب، فابتدأتْ بالتظاهر والاعتصام من أجل فلسطين والعراق، وانتهت باعتصام مطلبيّ قُمع بقسوةٍ من قِبل طلاّب بعثين في ٢٥ شباط (فبراير) ٢٠٠٤. ولقد ساهم في ضرب هذه الظاهرة الوليدة ثلاثةُ أطراف: **الأول** هو السلطة عبر أجهزتها الأمنية وجنودها من البعثيين في الجامعة، وبعدة وسائل مثل: إجهاض النشاط بالعنف، والضغط على أهالي الطلاّب، والفصل النهائي أو الموقّت من الجامعة، والاعتقالات (التي كان آخرَها اعتقالُ مجموعة طلاّب من جامعتيْ حلب ودمشق، وتحويلُ بعضهم إلى محكمة أمن الدولة، التي حَكَمَتْ على اثنيْن منهم بالسجن ثلاثَ سنوات لكنْ أُفرج عنهما قبلَ إكمالِ عامٍ واحد). **الثاني** هو الأهل، وذلك حين يضغطون على أبنائهم بكلّ وسائل الترغيب والترهيب، خوفًا عليهم، ولعدم الإيمان بجدوى ما يفعلون. **الثالث** هو بعضُ عناصر الحركة الديموقراطية الذين يمارسون شكلاً من الأبوية السياسية على الطلاّب في محاولةٍ لاحتوائهم وفرضِ الوصاية عليهم.

• **ثانيًا:** ما يميِّز الجامعاتِ السوريةَ هو أنّ الاصطفافات فيها قائمةٌ على أساسٍ طائفي ومناطقي وعِرقي. فتعابير مثل: «الديرية، الحموية، الدرعاوية، الشوَّامّ، الدروز، العلويّون، السُّنة، الأكراد...» متداولةٌ وتَعْكس مضمونَ تلك الاصطفافات: وتَسْتعرض الاصطفافاتُ هذه نفسَها إمّا في المؤتمرات الطلاّبية، حيث يتم «انتخابُ» قيادات طلابيّة للجامعة، أو عندما تتحول الجامعة إلى ساحةِ معركةٍ بين هذا الفريق أو ذاك.

• **ثالثًا:** ظاهرة أخرى تنتشر في الجامعات السورية، وهي ظاهرةُ الشباب المتأسلم. وتَكْثر في خطاب هذا الشباب مفرداتٌ مثل: «الدين الصحيح، العودة إلى الدين، الإسلام هو الحل...» فإذا سألتَ أحدَهم: «ولكنْ ما هو الدين الخاطئ؟» فإنّه سيقوم بسرد أصول الدين، حتى لتتخيّل أنّه لن يَدْخل الجنةَ أحدٌ ـ حتى لو كان من طائفته ـ إلاّ هذا الشابُّ وجماعتُه! أما إذا سألتَه: «ما الذي يَضْمن لنا في حال عودتنا إلى ' الدين الصحيح ' أن لا نبتعدَ عنه مجدَّدًا كما حصل مع أجدادنا؟» فإنّك ستَسْمع إجابةً مبنيّةً على مفهوم المؤامرة.

و«المؤامرة» ركنٌ أساسيٌّ من أركان الخطاب الجهادي. هذا عدا عن المضمون الإيجابي الذي يتمتع به مفهومُ «الجهاد» في الخطاب الديني. ومن سمات الخطاب الجهادي هذا مزجُه بين الشعبوية والتعبوية، واعتمادُه الحصريّ على مرجعية واحدة، ونظرتُه إلى المجتمع على أنّه كلٌّ متجانسٌ لا يَقْبل التعددية، وتوظيفُه الماضيَ والحاضرَ من أجل مستقبلٍ أخرويٍّ أو مُعادٍ منفصلٍ عن معاش الناس في هذه الدنيا.

• **رابعًا:** أما الظاهرة الجديدة التي طرأتْ على جيل الشباب، فهي التي تَذْهب إلى أنّ التغيير لا يُمْكن أن يأتي إلاّ من الخارج، وخصوصًا من أميركا. ويجد هذا التفكيرُ مصدرَه في بؤسِ واقعِ هؤلاء الشباب الذي يروْنه عصيّاً على التغيير بيد أبنائه. ويستند بعضُ الذاهبين هذا المذهبَ إلى قراءةٍ لماركس تتناقض، من حيث الجهة، مع القراءة التي سادت على امتداد القرن العشرين ـ وهي قراءةٌ ذاتُ مضمونٍ تحرّريّ كفاحيّ نابذٍ للاستعمار. ذلك أنّ القراءة الجديدة هي أيضًا ذاتُ مضمونٍ «تحرريٍّ كفاحيٍّ،» ولكنّه **جاذبٌ** للاستعمار وطالبٌ له، وهذا ما

الشباب الجامعي السوري: محاولة تصنيف

جعلها «تحرريةً» باتجاه الداخل، أو من الداخل. وتَسْتلهم هذه القراءةُ مقولاتِ ماركس التي تحيل على الأممية ورفضِ القومية... إلخ.

أما البعض الآخر من هؤلاء الشباب، فيَسْتلهم مفرداتِه من المصفوفة مابعد الحداثية، كالاختلاف والحوار والآخر، فيقرأها «أفلاطونيّاً» بحيث لا تعود هذه المفردات تُعنى بالبشر وعلاقاتِهم وتنوّعهم ومصالحِهم وتناحرهم، بل تُعنى ببشريةٍ مجرّدةٍ ومثاليةٍ ومترفّعةٍ عن المصالح والتاريخ. ووفق هذا الفهم، لم يعد غريبًا أن تَسْمع كلامًا ـ كالذي سمعتُه شخصيّاً ـ مِنْ مثلِ «أنّ مَنْ يقف ضدّ الإمبريالية فهو يقف ضد الآخر!»

إنّ خطاب هؤلاء الشباب هو خطابٌ ماهويٌّ بامتياز، يشتقّ الديكتاتورياتِ ومخابراتِها ومعتقلاتِها، وكذلك الإرهابَ المتأسلمَ، من ثقافةٍ كامنةٍ في مجتمعنا نفسه. وهم، في تجريم هذا المجتمع وثقافته، التي هي عندهم ثقافةُ القتل والدم، يشتركون مع نقيضهم الإسلامي الذي يكفّر المجتمعَ نفسَه... ولكنْ ـ وهنا الطرافةُ ـ لأنّه يرى فيه عكسَ ما يرى الطرفُ الأول من مظاهر الانحلال الخلقي والابتعاد عن الدين... إلخ. إنّه خطابٌ جهاديٌّ وكانتونيٌّ جديد.

يتدخّل السِّحرُ كي ينقذَ هؤلاء الشبابَ من حالة اليأس المطلق الذي قد يورطّهم فيه منطوقُهم، ليُظْهِرَ أميركا على شكل معجزة أو إلهٍ يستطيع أن يَخْلق الحرياتِ والديموقراطيةَ والكرامةَ الإنسانية من عدم، ولتكونَ النتيجةُ أنّ «أميركا هي الحلّ.» وبهذا لا يختلفون عن نقيضهم الإسلامي اللدود الذي يَرْفع شعارَ «الإسلام هو الحلّ.» وما سبق يقود إلى القول إنّ الديموقراطية التي يتبنّاها هؤلاء الشبابُ إنما هي «ديموقراطيةُ طوارئ،» إنْ صحّ التعبير؛ فهي ذاتُ مضمونٍ جهاديّ، سَنَدُه تأليهُ التاريخ أو «التقدم.»

• **خامسًا:** تنتشر في الجامعات السورية بعضُ المجموعات التي تنتسب إلى الماركسية والشيوعية. وهؤلاء، في صياغة خطابهم، لا يغادرون الخطَّ الذي رسمتْه حركاتُ التحرُّر الوطني في القرن الماضي، وذلك بالاستناد إلى بعض مقولاتها مثل: فكّ الارتباط والاستتباع للنظام الرأسمالي الإمبريالي العالمي، والعمل على بناء اقتصاد مستقلّ يهدف إلى إلغاء الأساس الاقتصادي القائم على الملكية الخاصة التي هي في أساس استغلال الإنسان للإنسان...

يُلْحِقُ هؤلاء الشبابُ المجالَ السياسيَّ بالحقل الاقتصادي، ولا يَعْترفون له بأيّ استقلالية. فالمسؤول، في رأيهم، عن التأخر التاريخي، وعن الفساد والاستبداد، هو موقعُ نمط الإنتاج السائد عندنا من حيث تبعيّته للمركز الإمبريالي العالمي وشكلِ المِلْكيةِ الناتج عنه، وكذلك لفشل مشروع البرجوازية الطرفية، الكبيرة والصغيرة. وهم، من خلال هذه الشمولية الاقتصادية، لا يَخْرجون عن التقليد الذي طالما وَسَمَ الماركسيةَ عبر تاريخها، وهو تغليبُ الاقتصادي على كافة المجالات الأخرى وإلحاقُها به، وخصوصًا المجال السياسي.

ويتورّط الكثيرُ من هؤلاء الشبّان في التعاطي مع الماركسية بشكلٍ لاهوتيّ من خلال ثنائية «النظرية والتطبيق،» التي تَذْهب إلى أنّ «النظرية صحيحة ولكنّ التطبيق خاطئ.» وهذا ما يَعْكس فهمًا للماركسية يرى أنّها صالحةٌ لكلّ زمان ومكان؛ وهو ما سيقود إلى تعاملٍ طَوَارئيّ مع الماركسية، كان جسدُه المفاهيميُّ في السابق يتألّف من تعابير من مثل: «خائن، تحريفي،...» أما الآن فإنّه يستلهم مقولاتٍ من مثل: «ماركسية صحيحة، ماركسية مزيفة...»

فإلى أيّ حدّ يَقْطع هؤلاء الشبانُ الماركسيون مع الأصولية الإسلامية عندما تقول: «الدين الصحيح والدين الخاطئ»؟ وهل فعلاً توجد ماركسيةٌ صحيحةٌ وأخرى مزيّفة؟ هل المناشفة والتروتسكية والماوية والمجالسية والغيفارية، وكذلك التجاربُ الفيتنامية والكورية والخمير الحمر...، هل كلُّ هذه تجاربُ لماركسياتٍ مزيّفة؟ وأين هي الماركسية «الصحيحة» إذن؟ والأهمّ هو: لماذا احتملت الماركسيةُ كلَّ هذا التزييف؟

يتجلّى الطابعُ الجهادي عند هؤلاء الشبان: أ) في أنّهم من أصحاب الحقيقة الواحدة والمرجعية الواحدة؛ ب) في «تأميم»

يعيش الشباب حالة اغتراب بسبب تهميشهم من الحياة العامة، ودور الأُسر التملّكي، والتعليم الجامد، وانعدام الأفق

الديموقراطية لصالح اليسار الماركسي (ولكنْ ليس أيّ ماركسي كما يبدو)؛ ج) في تكرار كلمة «بديل» في خطابهم («ماركسية صحيحة بديلة عن تلك المزيّفة، العمل على بلورة أممية بديلة، أن يبلور اليسارُ خطابًا بديلاً لما هو قائم من خطابات...»)، بحيث يَظْهر واقعُنا قاتمًا لا يَحْتمل إلاّ هذا البديل؛ د) في إعدام الماضي، وهو ما يَظْهر في تحميل البرجوازية الكبيرة والصغيرة تبعاتِ الحال الذي وَصَلْنا إليه، وتجاهُلِ تاريخ الحركة الشيوعية المحلية والعربية والعالمية، ما ارتبط بها من نكباتٍ وكوارث!

• **سادسًا**: تنتشر في الجامعات السورية بعضُ المجموعات الشبابية التي تَنْسب نفسَها إلى نيتشه أو إلى السريالية أو الوجودية، أو إلى كلّ هؤلاء مجتمعين في طبخةٍ عجيبة. يَغْرق هؤلاء الشبابُ في ذاتوية مفرطة تقود إلى الأنانية والعدمية بالضرورة، ويَعْكس وضعُهم حالةً جهاديةً سلبيةً تَعْزلهم عن المجتمع الذي يغدو موضوعًا لسخطهم، مستلهِمين بعضَ المقولاتِ والشطحاتِ من مرجعياتهم الفلسفية (مثل «السوپرمان،» و«الآخر هو الجحيم»...). و غالبًا ما يُستهلَكُ هؤلاء الشبابُ في ما يجرُّه عليهم منطقُهم هذا من مشاكلَ وعزلة.

• **سابعًا**: ثمة ظاهرةٌ شبابيةٌ أخذتْ تَنْتشر في المجتمع السوري عمومًا، وفي الجامعات خصوصًا. لكنْ لا بدّ من الإشارة أولاً إلى صعوبة الخوض فيها، وذلك لعدة أسباب: **أولاً**، جِدّتُها؛ فهي لم تأخذ في البروز المثير للانتباه إلا في الأعوام الأخيرة. **ثانيًا**، العزلةُ الذاتيةُ التي تَسِمُ تجمُّعاتِ هؤلاء الشباب، وحَذَرُهم من أيّ غريب، كما في العزلة والحذر اللذيْن يَفْرضهما المجتمعُ عليهم. **ثالثًا**، أنّ هذه الظاهرة ليست ذاتَ ملامحَ واحدةٍ، وإنْ كان شكلُها الخارجيُّ يوحي بذلك.

يشترك شبّانُ هذه الظاهرة في تمرّدهم على الواقع؛ وفي منظرهم الخارجي، حيث الشعرُ الطويلُ عند البعض والقصيرُ المصفَّفُ بشكلٍ فوضويّ عند الآخرين، وكذلك في الوشم الذي يزيِّن سواعدَهم، وفي الملابس التي تثير الانتباهَ من حيث ألوانها وحجمها. ويشتركون كذلك في تعلّقهم بالموسيقى الغربية، والصاخبةِ منها غالبًا. سنقوم هنا بتقسيم هذه الظاهرة إلى فئتين، مع الاعتراف باحتمالِ الوقوع في التبسيط :

١ ـ فئةٌ تَغْرقُ في ذاتويةٍ مفرطة، يتجلّى الإنسانُ عندها وكأنه ذاتٌ عاريةٌ عن كل الظروف الموضوعية التي تحيط به. واستنادًا إلى هذه الذاتوية يقومون بالابتعاد عن السياسة التي يخافونها، ويعدّونها شأنًا غريبًا ومفارقًا لهم.

ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الفئة من الشباب متديّنة تديُّنًا بعيدًا عن التزمّت؛ فأفرادُها يُصلّون ويصومون ويعترفون بشرعية القيم المجتمعية، رغم معاناتهم منها بسبب مظاهرهم. وقد يستند هؤلاء الشبابُ إلى الماضي والأصول لكي ينتزعوا الاعترافَ بهم: فمثلاً يرى بعضُهم أنّه من البديهيّ أن يحبّ الشابُّ العربيُّ أو المسلمُ الشعرَ الطويلَ لأنّ أجدادنا العرب الأقدمين، وكذلك الأنبياء (محمد، عيسى...)، كانت شعورُهم طويلةً. وبذلك يَظْهر هؤلاء الشبابُ وكأنّهم لا يفعلون ما يفعلون إلاّ لإعادة الأمور إلى «نِصابها» الأصيل.

نضيف أنّ هؤلاء الشبان لا يهتمّون إطلاقًا بالمطالعة، بينما تشكّل الموسيقى «حياتَهم» وانتماءَهم الوحيد.

بقي أن نقول إنّ هذه الفئة لا تَشْغل إلاّ مساحةَ الهامش من الظاهرة التي نناقشها.

٢ ـ تشكّل الفئةُ الثانيةُ الجسدَ الرئيسيّ لهذه الظاهرة. أما مفرداتُهم المتداولة فتتشابه مع ما ساد في الستينات من فورات شبابية في أميركا، مثل: «الشعر الطويل أكثرُ إزعاجًا من النظريات،»[1] «إذا كنت تَرْفض المجتمعَ، فالأحرى أن تَرْفض أخلاقَه وتبحثَ عن شيء جديد،» «كلُّ أخلاقٍ قيدٌ»... لكنّ هذه الظاهرة صَعدتْ في أميركا احتجاجًا على قيم المجتمع الأميركي وسياساتٍ نُخَبه الداخلية والخارجية

١ ـ هذه العبارة ترجع إلى جيري روبين، أحدِ قادة الهيبيز في الولايات المتحدة.

الشباب الجامعي السوري: محاولة تصنيف

(كالحرب الفيتنامية)، بحيث انعَزَلَ أولئك الشبابُ عن المجتمع الذي غدا موضوعًا لسخطهم وهدفًا لأعمال التخريب التي كانت تبرَّر بالاستناد إلى رؤية إنقاذية للعالم من الشرور التي تعتريه. وأما الشبابُ السوريون ضمن هذه الفئة فلا يُقحِمون السياسةَ في إطار عملية تمرّدهم و احتجاجهم، وإنما يقتصرون على بعض القيم والظواهر المجتمعية (دينية، تقاليد، العائلة...).

يعيش هؤلاء الشبابُ في الموسيقى، حتى إنّهم ينقسمون إلى طوائف بحسب الموسيقى التي يسمعها كلُّ فريق (المَتِلْ، الراپ، البوپ، الروك...) حيث لكلّ طائفة أجواؤها وطقوسُها الخاصة. ومن الفرق المرغوبة عندهم: العذراء الحديدية، آنتي پارادايْس (ضدّ الجنة) المشهورة بأغنية «لا أؤمن بشيء،» Man of War (رجل الحرب)، Mega Death (الموت الهائل). إلاّ أنّه من المثير للانتباه انتشارُ أغاني نجم موسيقى البوپ والراپ الأميركي «إمينم،» الذي قال عنه جورج بوش إنّه «أخطرُ تهديدًا لأطفال أميركا من شَلَل الأطفال،» والذي تشتهر الموسيقى التي يتربّع على عرشها بأنّها تروِّج «ثقافةً يكاد يكونُ القتلُ فيها من مُلْحَقاتِ الموضة» حسب وزير الثقافة البريطاني كيم هاولز. إنّ إمينم، عبر توحُّش موسيقاه، يَنْقض الميثولوجيا الأميركية العامة عن «ماما وبابا والأطفال السعداء التي مازال بوش يروِّجها»؛ إنّه «شاعرُ تدميرِ العائلة الأميركية.» ويَظْهر هذا جليّاً في أحد كليپاته الذي يقوم فيه بقتل زوجته المنفصلة عنه بمساعدة ابنته الرضيعة، في جوٍّ قياميّ احتفاليّ صاخب. ويَظْهر ذلك أيضًا في تحقير أمّه التي لا يتورّع عن وصفها بأقذعِ الأوصاف، مثل «أيتها الكلبة الأنانية.»[1]

هنا لا بدّ من إثارة أسئلة من نوع: ما هو الفراغ الذي تملأُهُ مثلُ هذه الأغاني عند هؤلاء الشباب؟ أمْ تراها دلالةً على حالة الفراغ والتهميش التي يعيشونها، فهي ـ من ثم ـ ردةُ فعل على تلك الحالة؟ هل الإقبالُ عليها هو إعلانٌ للجهاد ضد العائلة والقيم التي ترتبط أو تتفرَّع عنها في مجتمعٍ تحتلّ فيه العائلةُ مكانةً مرموقةً في تركيبته الهرمية؟

أيّاً تكن الإجابات، فإنّ حالة الانتماء إلى الموسيقى عند هذه «الكائنات الموسيقية» تَعْكس الرغبةَ في الاستسلام لفقدان الحاضر والخروج من طيّاتِ زمانٍ مغلقٍ عَطّلتْ حركتَه محاكمُ الأخلاق الثورية والمجتمعية. إنّها نوع من الإيديولوجيا الجديدة يُعْلِنُ عَبْرَها هؤلاء الشبابُ «الجهادَ» على عالمٍ شديدِ الغرابة، عالمٍ لا عدلٌ فيه ولا حقوقٌ ولا شعرٌ ولا حبٌّ ولا موسيقى ولا رقص...

III ـ خاتمة

يَعْكس هذا التصنيف، الذي لا يدّعي أنّه قدَّم تخطيطًا شاملاً لانتماءات الشباب الجامعي السوري، حالةَ الاغتراب التي يعيشونها. وهو اغترابٌ يجد أساسَه في ما يلاقيه الشبابُ من تهميش على صعيد الحياة العامة، وفي الدور الذي تلعبه الأُسرةُ التي غالبًا ما تأخذ فيها العلاقةُ بين الآباء والأبناء شكلاً تملُّكيّاً هرميّاً يجد مفرداتِه في لغة الأمر والنهي (لا الحوار)، وفي التعليم الذي لم ينجحْ حتى الآن إلاّ في أن يقدِّم لهم عالمًا جامدًا لا حياةَ فيه، وفي انعدام الأفق الذي يَظْهر من خلال القلق على المستقبل إذ أصبحت الوظيفةُ والمسكنُ والزواجُ... حلمًا عزيزًا ينغّص عليهم حياتَهم.

حلب

إيّاد العبد الله
كاتب سوري شابّ.

١ ـ يراجَعُ في هذا الشأن: أوهاغان شون، «إمينم والقيم الأميركية إذ تضطرب،» ترجمة عبد الإله النعيمي، مجلة **أبواب**، عدد ٣٣، ٢٠٠٣.

وجوه الاغتراب في علاقة الشباب السوري بالسياسة

بكر صدقي

من بين الصِّفات التي أُطلقتْ على الرئيس السوري بشّار الأسد، نجد أنّ صفة «الشابّ» هي الأكثر حضورًا. وعلى الرغم من حيادها الظاهري، فقد أُريدَ تحميلُها دائمًا بحزمة من القيم الإيجابية، كالدينامية والأمل والتفاؤل ومواكبة العصر. وبمعنى ما، فقد تمّ تحميلُ «شبابه» مهمّاتٍ جسيمةً لتجاوز «شيخوخة» النظام في سوريا على جميع المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وفي المؤتمر القطْري العاشر لحزب البعث الحاكم تمَّ التخلّصُ من معظم الوجوه «الشائخة» ممّن شاع إطلاقُ تسمية «الحرس القديم» عليهم، وهو ما يعني أنّ السلطة باتت اليومَ بيد «الشباب،» وقد يوحي بأنّ الشباب في سوريا منخرطون في الشأن السياسي إلى أبعد الحدود. لكنْ، في المقلب الآخر، يلاحِظ المراقِبُ من خلال الاعتصامات أو الظهور الإعلامي أو المنتديات أو غيرها من الأنشطة أنّ الكهول والشيوخ هم الفئة العمرية الغالبة على مشهد المعارضة السورية. فكيف ترتسم، إذن، العلاقةُ بين الشباب السوري والسياسة؟

يتطلّب الجوابُ على هذا السؤال توسيعَ نطاق النظر ليَشْمل الجزئياتِ الدقيقة من الظواهر، الأمرُ الذي يَفْرض نوعًا من التصنيف الذي يتطلّب بدوره معيارًا مرجعيّاً يتمّ على أساسه. وقد وجدتُ أنّ كلمة «الاغتراب» يمكن أن تساعد في قراءة المشهد وتوصلَنا إلى نتائج مفيدة. إنّها مجردُ كلمةٍ إجرائية، ولا أريد تحميلَها أكثرَ من هذه الوظيفة. وأدرك، في المقابل، أنّ قراءتي لا تقوم على منهج علميّ صارم، بل تقتصر على رصد ظواهر، وتحاول الربطَ فيما بينها أو تفسيرَ بعض جوانبها.

أَوْحتْ لي بهذه الكلمة جلسةُ نقاش انعقدتْ منذ أكثر من عامين، وضَمّتْ فريقين. تكوَّنَ الأولُ من عَدد من كهول المعارضة ـ وكانوا في أواخر السبعينيات من القرن المنصرم طلاّبًا جامعيين ـ فيما تكوَّنَ الثاني من طلاّب ما زالوا في جامعاتهم وشكّلوا أغلبية الجلسة. دار النقاشُ حول البحث عن أسباب شيخوخة المعارضة السورية، وكان لافتًا أنّ جواب معظم الشباب تمثَّلَ في نقد المعارضة التي لا تقدِّم للشباب سياساتٍ جذّابةً تثير اهتمامَهم. في حين أنّنا في السبعينيات، حين كنّا في أعمارهم، لم نطالب المعارضةَ بسياسات جذّابة، بل انخرطْنا فيها لأنّ شؤون البلاد العامة تهمّنا؛ أي أنّنا لم نتصرّف كـ «فئة نوعية» لها مطالبُ خاصّةٌ بها.

ليس من العدل طبعًا أن نطالب الشبابَ اليومَ أن يكونوا كما كنّا ـ فلكلِّ زمانٍ منطقُه. غير أنّه من المشروع أن نتساءل: ترى هل حوّلناهم نحن إلى «فئة نوعية» بفعل خوفنا من انقراضٍ بيولوجيٍّ محتملٍ للمعارضة إذا لم تتداركْ نفسَها وتستقطبِ الأجيالَ الشابة؟ أَمْ أنّ الشباب يتمزّقون بين الحاجة إلى رعايةٍ أبويةٍ يموِّهون عليها بالنقد الحادّ للمعارضة، والرغبةِ في استقلالٍ يعجزون عن إحرازه؟ في جميع الأحوال كشفت الجلسةُ عن وجودِ ما سمّاه ياسين الحاج صالح، في محاضرةٍ ألقاها في منتدى جمال الأتاسي للحوار في أواخر العام الماضي، بـ «الفجوة الجيلية.» وإذا كان من الممكن إرجاعُ هذه الفجوة إلى مفاعيلِ ابتلاع السلطة للمجال العامّ وإجهازها على أيّ هامش مستقلّ للفعالية الاجتماعية على مدى العقدين الأخيرين من القرن العشرين، فإنّه لا يقدِّم تفسيرًا كاملاً للانقطاع شبه الكامل بين الشباب والمعارضة.

فلنحاولْ، إذن، تأويلَ جواب الشباب المذكور أعلاه على نحو آخر. وعليه، فإنّ عبارة «ليست لدى المعارضة سياساتٌ جذّابة تثير اهتمامَ الشباب» قد تعني أنّ خطابها السياسي لم يتغيّرْ منذ ربع قرن وبات متقادِمًا. وهذا صحيح إلى حدّ كبير. فضلاً عن أنّ خطابها هو نفسه خطابُ السلطة في خطوطه الأساسية؛ ذلك أنّ مطالبةَ المعارضة بالديموقراطية والحريات الأساسية تندرج في إطار «تمتين الوحدة الوطنية في مواجهة الأخطار الخارجية» (وليس كمطلب مستقلّ يستمدّ شرعيتَه من ذاته)، وهو عينُ ما يشدِّد عليه خطابُ السلطة حين يتحدّث عن الوحدة الوطنية و«رصّ الصفوف» في مواجهة الأخطار ذاتها.

كانت العقيدةُ الرسميةُ للنظام الحاكم، ولا تزال، المصدرَ الأهمَّ لتشكيل الرأي العامّ والوعي السياسي لدى معظم السوريين ـ بمن فيهم الشباب. في هذا الإطار يمكن أن نرى إلى ظاهرة

وجوه الاغتراب في علاقة الشباب السوري بالسياسة

لافتة قامت بتشكيلها مجموعةٌ من طلاّب جامعة حلب في السنوات القليلة الماضية، وتمثّلتْ في نشاط مستقلّ أراد النظامُ أن يقضي عليه باعتقال محمد عرب ومهنّد الدبس في نيسان (أبريل) ٢٠٠٤. كان أبرزَ نشاطات تلك المجموعة القيامُ بعدد من التظاهرات الطلابية السلّمية تضامنًا مع الشعبين الفلسطيني والعراقي، وقد تُوِّجتْ باعتصام احتجاجيّ على المرسوم الجمهوري الذي تتخلّى بموجبه الدولةُ عن التزامها بتشغيل خرِّيجي كليّات الهندسة.

في كلا النشاطيْن نرى إخلاصًا للعقيدة القومية التقدمية والسياسات المشتقة منها، في ما يُشْبه رسالةَ تمرُّدٍ أبناء النظام على الأب الذي حادَ عن الخطّ الذي رَسَمه بنفسه لهم بل وأرغمهم على اتّباعه.

عندما نقرأ الموادَّ التي كتبها عددٌ من أولئك الطلاّب ونُشرتْ على مواقع إلكترونية، نرى أنّها تَصْدر عن شعورٍ عميقٍ بالإحباط ناجمٍ عن التناقض بين خطاب السلطة وممارساتها السياسية، ويجدُ تعبيرَه في نقدٍ حادٍّ للسلطة لعدم ردِّها ـ مثلاً ـ على الاعتداءات الإسرائيلية في عين الصاحب ودمشق، أو لممارساتها القمعية، أو لتخلّيها عن التزاماتها الاجتماعية، أو للفساد المستشري في مفاصلها.

هذه الظاهرة بقيتْ محصورةً في حدود ضيقة لم تتجاوزْها إلى الجامعات السورية الأخرى ولا إلى الإطار الاجتماعي الأوسع، على الرغم من المحاولات التي تمت في هذا المنحى. ويعود سببُ ذلك، في رأيي، إلى غياب أهداف وطنية جامعة وتصوُّرات ملموسة للوصول إليها لدى مختلف الفئات الاجتماعية. وإذا كان ذلك خارج حدود هذا المقال، فسوف نرى بعضَ مفاعيله في جوانب من علاقة الشباب السوري بالسياسة.

ثمة ظواهرُ ثلاثٌ بارزةٌ في لوحة الشباب السوري: البطالة التي تقدِّرها بعضُ المصادر المستقلة بنسبة ٢٠٪ من قوة العمل وهي تتفاقم عامًا بعد عام؛ والتديُّن؛ وأخيرًا نوعٌ من العدمية يُمْكن تلمُّسُ أشكالها في الإشاحة عن الشأن العامّ والكفر بالإيديولوجيات والانغماس في اللحظة الراهنة بوصفها الوجودَ اليقينيَّ الوحيد.(١)

ننطلق من هذه المقدِّمات لنَرْصد أبرزَ مظاهر اغتراب الشباب السوري في علاقته الفعلية أو الافتراضية بالسياسة:

١ ـ اغتراب إيديولوجي: وأكثر ما نلاحظه يقوم في اتّساع رقعةِ التديُّن ذي الطابع السلفي باعتباره نوعًا من الافتراق عن الواقع وهروبًا من بؤسه (المتمثّل في البطالة والفقر وانسداد الأفق القومي والحضاري). أما من بين من المظاهر المعتدلة فنَذْكر التديُّنَ الفردي البسيطَ أو التبعيةَ لشيوخ معتدلين، كالبوطي والمرحوم الخزنوي ومحمود عكام، على اختلاف توجّهاتهم وأدوارهم السياسية. كما نَذْكر ما بات يُعرف بـ «مجموعة داريّا،» ومجموعة اللاذقية التي تُدعى «صُنّاع الحياة» وتهتدي بأفكار الداعية المصري الشهير عمرو خالد. وقد تعرَّضت المجموعتان للاعتقال وأُطلق سراحُ معظمهم لاحقًا. أما مظاهرُها

١ ـ في العدد ١٦ (والأخير) من جريدة **المبكي** الأسبوعية تحقيقٌ لعبد الرزاق دياب عن عَبَدة الشيطان في سوريا، نقتطف منه ما يلي:

«تقول ديما. ا.، في ما كتبتْه للمحرِّر على شكل بيان عن المجموعة: ' نحن مجموعةٌ من الشباب، اجتمعنا على حبّ شيءٍ واحد هو موسيقا الميتال. لسنا منظمةً أو حركة... الميتال موسيقا منبوذةٌ، وبالتالي محبو الميتال منبوذون أيضًا '.

وفي شهادة أخرى لفتاةٍ يَرْمز لها المحرِّر بـ (ديما. ص.) ويصفها كما يلي: «فتاة عادية المظهر، تَلْبس بعضَ الخواتم الغريبة والعادية. [أنّها] خواتم على شكلِ أفاعٍ، على عكس ديما.ا. التي تبالغ في أظهار غرائبها من أقراط على شكل جماجم وقلادة تحمل وجه الشيطان وترتدي السواد، تقول ديما: «نحن لسنا عبدةَ شيطان. فأنا فتاة مسلمة. أؤمن بأنّ الله موجود، والقدر مكتوب. أُحبُّ فيروز وماجدة الرومي وزياد الرحباني. فرحتُ عند تحرير الجنوب اللبناني، وحزنتُ لسقوط بغداد... ولكنّ الواقع مخيِّب ومأساوي... الميتال هو اعتراضٌ مريرٌ على عدم ديموقراطية التعبير من المنزل إلى الجامعة إلى المجتمع، ولهذا أحببتُه. وقلادةُ الشيطان هي الوجه الحقيقي للعالم الذي نحياه.» (**المبكي**، العدد ١٦، ٢٠٠٥/٥/٢٢، ص ١٣).

القول إنّ المعارضة ليست لها سياسات تَجْذب الشباب قد يعني أنّ خطابها لم يتغيّر منذ ربع قرن، بل هو خطاب السلطة في خطوطه الأساسية

المتطرفة فهي أكثر سريّةً من أن نَعْرف حجمَها ومدى فاعليتها، ويُمْكن رصدُ تجلّياتها في ظاهرة المجاهدين في أفغانستان سابقًا والعراق لاحقًا. ومن دُعاتها المشهورين شخصٌ يدعى بـ «أبي القعقاع،» مثيرٌ للجدل، ويقال إنّ له علاقات ملتبسة بجهات أمنية؛ يقوم بنشاطاته علنًا، وله أتباعٌ كثيرون في المناطق الشرقية والشمالية من البلاد.

كما يُمْكن أن نُلْحِقَ بالظاهرةِ نفسِها الشبابَ المنضويَ في صفوف عدد من الأحزاب العلمانية، التي استَبْدلت السياسةَ بالإيديولوجيا. وأعني أحزابًا في الجبهة الحاكمة، وأخرى خارجَها في المعارضة، من خلال الإيديولوجيا الماركسية ـ اللينينية مثلاً.[1]

٢ ـ اغتراب انتهازي: يَظْهر هذا النوعُ من الاغتراب في أوساط الشباب البعثي بصورة خاصة، ممن ينضمّ إلى الحزب الحاكم والمنظّماتِ التابعةِ له طمعًا في مكاسبَ ماديةٍ أو معنوية. ويقوم اغترابُ أغلبية هؤلاء الشباب على دفاعهم عن سلطة لا تعبّر عن مصالحهم، حتى بالمعنى الحَرْفي الضيق. إنّ حادثةَ اعتداء الطلاّب البعثيين على زملائهم المعتصمين في ساحة جامعة حلب (شباط/فبراير ٢٠٠٤)، احتجاجًا على المرسوم الجمهوري الذي ألغى تعهُّدَ الدولة بتوظيف المهندسين، هي مثالٌ نموذجيٌّ على هذا النوع من الاغتراب، علمًا أنّ بين المعتصمين الذين تعرّضوا للضرب عددًا لا بأس به من البعثيين. ثم تكرّرتْ هذه الممارسةُ عندما هاجم طلابٌ بعثيون اعتصامًا للمعارضة أمام القصر العدلي في دمشق بمناسبة ذكرى إعلان حالة الطوارئ المستمرة منذ ٤٢ عامًا، فنكّلوا بالمعتصمين على مرأًى من رجال الأمن.

تَنْبع هذه التصرّفات من تسليم الناس، ومنهم الطلاّبُ والشبابُ بصورة أعمّ، بقَدَريةِ وأبديةِ السلطة الحاكمة، التي تماهتْ في وعي الناس مع الدولة. وقامت تلك «الدولة» على نواظمَ معينةٍ، تأبّدتْ بدورها، وتؤثّر بشدة في رسم مصائر الأفراد والجماعات، بدلالة علاقتها مع السلطة سلبًا أو إيجابًا: فإذا كان التقرُّبُ من السلطة وتملُّقُها وتنفيذُ تعليماتها تُجنِّب الأفرادَ المخاطرَ أو تحقّقُ لهم مكاسبَ في الارتقاء الاجتماعي أو تمرير المصالح الفردية من فوق القانون أو تحته، فإنّ معارضة السلطة ـ حتى بالنقد الشفهي لممارسات معينة أو أشخاص معينين ـ تؤدّي إلى مصائر مجهولة: بدءًا بالطرد من جنّة المكاسب والامتيازات، وانتهاءً بمخاطر وجودية من فقدان الحرية حتى فقدان الحياة.

هذان، الثواب والعقاب، يَدفعان عمومَ الناس إلى حالةٍ بدائيةٍ تحرّكُها غرائزُ الخوف من جهة، والتنمُّر دفاعًا عن السلطة وتمثيلاتها إمعانًا في إثبات الولاء من جهة ثانية.

٣ ـ اغتراب عن المكان: ويتمثّل في الهجرة، أو في حلم الهجرة الذي يغذّي آمالَ مَنْ لم يحظَ بالهجرة الفعلية. وإذا كانت دولُ الخليج قُطبًا جاذبًا للهجرة في عقد السبعينيات، فقد أصبحتْ أوروبا وأميركا وباقي دول العالم تنافِسُ دولَ الخليج في أحلام الشباب السوري. ولكنْ ثمة فارقٌ بين الحالتين: فالهجرة إلى دول الخليج تعني دائمًا هجرةً موقّتةً لتحسين مستوى الحياة بمقوّماتها، المتمثّلةِ في شراء بيتٍ وسيارةٍ وإقامةِ مشروع خاصّ يُغني عن العمل المأجور؛ أما الهجرة إلى الدول الأخرى، وخاصةً أوروبا والأميركيّتان، فهي تعني في الغالب هجرةً دائمة، دوافعُها مزيجٌ من الاقتصاد والسياسة والثقافة، وقوّتُها

١ ـ في ندوة نقاش حول الديموقراطية والدستور السوري، نظّمها الحزبُ الشيوعي ـ جناح يوسف الفيصل، أذهلني ابتعادُ أغلب المتداخلين عن الواقع والحياة. أكثرُ من متداخل قال: «نعم، نحن مع الديموقراطية، ولكنْ يجب أن نحدّد بوضوح: الديموقراطية لمن؟ إنْ ما يُطرح هو ديموقراطيةٌ لصالح البورجوازية، وهذا مرفوض» ـ وكأنّ ما هو قائمٌ في سوريا هو لصالح البروليتاريا! متداخلٌ آخر تمادى في الاستغراق في عالمِ أوهامه، فدعا إلى محاربة البورجوازية بالسلاح!

أما الناصريون فقد رفعوا في الاعتصامات المندّدة بالحرب على العراق (٢٠٠٣) شعارا يعود إلى العام ١٩٦٨: «لا اعتراف! لا صلح! لا مفاوضات!»

وجوه الاغتراب في علاقة الشباب السوري بالسياسة

المحرّكةُ هي اليأسُ وانسدادُ الآفاق من العيش الكريم في سوريا.

٤ ـ «اغتراب الغريب»: يخصّ هذا المظهرُ فئةً ضيّقةً من الشباب، هم أبناءُ أفرادِ النخبة الحاكمة الذين يتمتّعون بموهبةٍ وحيدةٍ واحتكاريةٍ هي صلةُ الرَّحم التي تربطهم بتلك النخبة. وهم يستثمرون هذه الموهبةَ في جني أموالٍ باهظةٍ ينقلونها بصورة منتظمة إلى المصارف في الخارج، وينغمسون في نمطِ حياةٍ مغتربٍ لا يَرْبطه أيُّ رابطٍ بنمط حياة أفراد الشعب. ويستقطب هؤلاء في استثماراتهم أعدادًا كبيرةً من الشباب ذوي الكفاءات التقنية، بحيث يَخْلقون ما يُشْبه القاعدةَ الاجتماعيةَ، بعيدًا عن الإيديولوجيا البعثية ومؤسساتها (ولكنْ من دون التخلّي عن الولاء للسلطة). ويتمّ إغراءُ هؤلاء الشباب برواتب فوق المعدّل السائد في وظائف الدولة والقطاع الخاصِّ التقليدي، مع أنها تبقى رواتبَ متواضعةً بالمقاييس العَالمية.

هذه الفئة التي دَرَجَ بعضُ كتّاب الصحف على تسميتها بـ «الذئاب الشابّة»[1] تبدو وكأنّها الجزءُ الفاعلُ والأكثرُ ديناميّةً في نخبة السلطة الحاكمة، وهي تتطلّع إلى التخلّص من بقايا الاقتصاد الموجَّه، لتكون طليعةَ الانتقال إلى اقتصاد السوق والعولمة، من غير أن تَفْقد احتكارَها للامتيازات ولله «موهبة» المذكورة آنفًا. وقد عَبَّرتْ هذه الفئةُ عن نفسها بصورة لافتة في شهر آذار (مارس) ٢٠٠٥، بتنظيمها مسيراتٍ حاشدةً تأييدًا للقرار الرئاسي بالانسحاب من لبنان. ولقد أعطتْنا تلك المسيراتُ صورةً عن مستقبل النظام الذي يريده هؤلاء: إنّه «اقتصادُ سوق اجتماعي،» على ما سمّاه المؤتمرُ العاشرُ للحزب الحاكم الذي انعقد في حزيران (يونيو) ٢٠٠٥ .

٥ ـ اغتراب الكردي: للشباب الكردي وزنٌ نوعيٌّ في المشهد السياسي العامّ، رَأَيْنا أحدَ تجلّياته في انتفاضة آذار (مارس) ٢٠٠٤ . يلعب الوعيُ القومي المتنامي دورًا شديدَ الأهميّة في السلوك السياسي للشباب الكردي، مع استمرار أثر العوامل الأخرى المذكورة فيهم (بطالة، فقر، أحلام هجرة، انعدام الحريات... إلخ). وهنا، لا مفرَّ من شيءٍ من التوسُّع في هذا الموضوع، لجلاءِ أبعادِه المختلفة.

ثمة عاملان دفعا إلى زيادة الوزن النوعي للفاعل السياسي الكردي في السنوات الأخيرة. يتمثّل **الأولُ** في المسار الانحداري للوطنية السورية، والصعودِ المتفاقم للانتماءات ما قبل الوطنية، الأمرُ الذي شجّعتْه السلطةُ الحَاكمةُ بصورة مباشرة من خلال توظيف تلك الانتماءات في مهمةِ تأبيدِ السلطة، وبصورة غير مباشرة من خلال تحطيم التكوينات الوطنية الحديثة المتمثّلة في الأحزاب السياسية (الموالية والمعارضة على حدٍّ سواء). وقد تجلّى ذلك المسارُ الانحداري للوطنية السورية لدى الأكراد في التفافهم المتزايد حول الهوية القومية، وهذه ظاهرةٌ صحيةٌ ومرغوبةٌ في حدِّ ذاتها. لكنّه انعكس في مزيدٍ من روح الانعزال أيضًا عن عرب سوريا، وهذا هو الجانب غير المرغوب من وجهة نظر الوطنية السورية الجامعة. ويتغذّى الانعزالُ، فضلاً عن المسار المذكور، على شعورٍ تاريخيّ بالغُبْنِ والتهميشِ السياسي والثقافي والاجتماعي ـ الاقتصادي؛ كما يتغذّى، من جهة أخرى، على حلم الدولة المستقلّة الذي يداعب مخيّلةَ كلِّ كردي بلا استثناء.

كما تَلْعب تطوراتُ الجوار الاقليمي دورًا شديدَ الأهمية في شعور الكردي بإمكانية تحوّل الحلم إلى حقيقة. وهذا هو العامل **الثاني** في زيادة الوزن النوعي للفاعل السياسي الكردي في السنوات الأخيرة. لقد وجد حزبُ العمال الكردستاني، بقيادة عبد الله أوج آلان، البيئةَ المثاليةَ لفاعليّته في المناطق الكردية في سوريا، وشارك آلافُ الشباب من الأكراد السوريين في الصراع المسلّح الذي خاضه الحزبُ المذكورُ ضدّ الجيش التركي في الثمانينيات والتسعينيات من القرن المنصرم. وكان حلمُ الدولة الكردية المستقلة يبدو لهم، في

١ ـ في عدد من مقالات محمد جمال باروت الصحافية.

الشباب عاجزون حتى الآن عن بلورة مبادرات مستقلّة تتجاوز المعارضة ولا تلتحق بالسلطة

ذلك الحين، في متناول اليد. ومع إقامة الكيان الفيدرالي في شمال العراق انتقل الحلمُ إلى هناك. أمّا بعد إسقاط الأميركيين لنظام صدّام حسين فقد أصبحت الشروطُ مكتملةً موضوعيّاً لإمكانية انتفاضةٍ كرديةٍ ضد السلطة تَشْمل جميعَ مناطق وجود الأكراد. بالطبع كان واردًا تجنُّبُ ما حدث لولا السلوكُ غيرُ المسؤول لأجهزة السلطة تجاه حادثة ملعب القامشلي، التي كان يُمْكن تطويقُها بصورة سلمية وبمعاقبة المتسببين. واللافت في أحداث آذار (مارس) أنّ أبطالها بغالبيتهم شبّانٌ صغارُ السنّ، من أشدّ الشرائح فقرًا وتهميشًا، التقطوا الفرصةَ ليعبِّروا عن سخطهم على الحياة المزرية التي يعيشونها. لقد شعر كلُّ كرديّ في سوريا، في آذار وما بعد، بأنّه مستهدفٌ في أمنه، لمجرد أنّه كردي. وبالمقابل، شَعَرَ كلُّ كردي بواجب التضامن مع إخوته الأكراد الذين تعرَّضوا للتنكيل والقتل، وامتلك كثيرون منهم شجاعةَ النزول إلى الشارع تعبيرًا عن هذا التضامن.

هذا الشعور القومي الجامع يستحقّ كلَّ احترام بعد أن أَثْبت قدرَته على الفعل. لكنّ «اغتراب» الشباب الكردي يَكْمن بالضبط في هروبه إلى حلم يرى احتمالَ تحققه ليس هنا بل «هناك» (في تركيا مرةً وفي العراق مرةً)، الأمرُ الذي يوسِّع من جبهة خصومه ويوحِّدهم ضدَّه (أنظرْ إلى سلوك المعارضة الديموقراطية السورية تجاه أحداث آذار) ويفاقم من عزلته في الإطار الوطني السوري، من غير أن يلوحَ في الأفق احتمالُ الاستغناءِ عن هذا الإطار بآخرَ «كردستاني.»

خاتمة

نَخْلص إلى القول إنّ السمة الغالبة على علاقة الشباب في سوريا بالسياسة هي الاغتراب بمختلف تجلّياته، لا يَنْتقص من هذا الحكم التحاقُ أعداد كبيرة منهم بالحزب الحاكم ومنظّماته الملحقة به، أو أحزاب جبهته، أو نقاباته المهنية والقطاعية. فجميع هذه الهياكل البيروقراطية تَلْعب دورًا نابذًا للسياسة، إذا كانت هذه تعني المجالَ العموميَّ بتنوُّعه وتناقضاته التي تعكس التنوُّعَ الاجتماعي وتناقضاته. وفي المقابل، تشير القطيعةُ بين الشباب والمعارضة إلى مشكلة تَشْمل طرفي المعادلة: مشكلة في المعارضة التي عجزتْ حتى الآن عن إنتاج برنامج قادر على استقطاب قوى اجتماعية من شأنها خلقُ توازنِ قوًى فاعلٍ أمام السلطة؛ ومشكلة في الشباب العاجزين حتى الآن عن بلورة مبادرات مستقلّة تتجاوز المعارضة، ولا تَلْتحق بالسلطة، مبادرات من شأنها أن تجعل الشباب يسيطرون على مصيرهم ويساهمون في رسم مستقبل بلدهم.

بكر صدقي
كاتب ومترجم عن التركية.

جيل القدر

خليل الحاج صالح

مَن نحن؟

يَطْرح مفهومُ «الجيل» جملةً من المسائل المعرفية والاجتماعية والسياسية المتداخلة، وهذا ما يجعله مفهومًا إشكاليّاً. لهذا قد لا تساعد المناهجُ التي يستخدمها الباحثون في مجالَي التربية وعلم الاجتماع لتحقيب حياة المجتمع إلى أجيالٍ يَفْصل بينها عددٌ محدّدٌ من السنين. وهي قد لا تساعد لأنّ ما نبتغيه هنا لا يقف عند حدِّ تناولِ عناصرَ خارجيةٍ وموضوعيةٍ لظاهرةٍ ما، بل نتجاوز ذلك إلى تناوُلِ عناصرَ ذاتيةٍ في الصورة التي يَرْسمها جيلُنا لنفسه. ثم إنّ القضية ما تزال راهنةً، لذا فإنّ الحديث عمّا يتجاوز المعطى والراهنَ ستَحْكمه اعتباراتٌ قَبْلية واستشرافية. يُضاف إلى ذلك غيابُ الدراسات والأبحاث المستقلّة التي تقول ما لا تقولُه البلاغةُ الرسميةُ وأخواتُها عن «جيلِ المستقبل» أو «أملِ المستقبل» أو «جيلِ الثورة.»

ربما يكون جيلُنا هو أولَ جيل سوري منزوع الهوية، أسياسيةً كانت أمْ ثقافية. فليس لأيّ من التوصيفات السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية في أُذُنه ما كان لها من رنين عند الأجيال السابقة. إذ لا ترتبط مفرداتٌ مثلُ: «شيوعي،» «ناصري،» «بعثي،» «علماني،» «قومي سوري،» «تقدمي،» «رجعي» أو «ليبرالي»... بأيّ مضمون، ولا تحرّك أيّة مشاعر، كما لا تستثير رغبةً في العمل أو همةً لإنجازه. فهي بالنسبة إليه مصطلحاتٌ خاليةٌ من المضمون، جثثٌ عقائدية.

جيل القدر

استهلّ أحدُ أساتذتنا كلامَه ذاتَ مرة، وكنّا نَحْضر احتفاليةً لتكريمه بعد تخرُّجنا من الجامعة، بقوله: «نحن جيلُ الحرية، وأنتم جيلُ القدر.» ذاكرةُ أستاذنا العجوز تتّكئ على عقود القلق المتفائل منذ الأربعينيات، مع الاستقلال والبرلمان والأحزاب والانقلابات والوحدة والشارع ـ معترضًا ومؤيِّدًا. أما ذاكرتُنا فتتأسس مع أشباح الخوف والكبت والتحذير والرقابة والتقارير الأمنية والشارع ـ خاليًا إلاّ من مسيراتِ التأييدِ الإلزامية في عقدِ الغرائز: العقدِ التاسع.

السياسة ممنوعة في المدرسة. لكنّ أولَ ما نفعله صباحَ كلّ يوم، وقبلَ الدخول إلى الصفّ، هو ترديدُ الشعار: «أمّة عربية واحدة ذاتُ رسالة خالدة»؛ والأهداف: «وحدة ـ حرية ـ اشتراكية»؛ والقَسمَ الطليعيّ: «رفيقي الطليعيّ: كُنْ مستعداً لبناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحّد والدفاع عنه،» فنردّ بصوتٍ واحد: «مستعدّ دائمًا.» وتصبح مهمّةُ المعلِّم هي استثمار قُدُرات التلاميذ المتميِّزين في حفظِ وترديدِ عددٍ من الأقوال والهتافات؛ ثم يَدْفع بهم إلى دائرة «الروّاد الطليعيين،» فيَحْفظون عشراتِ الأقوال، ويكرِّرون كلَّ إنجازات «ثورة الثامن من آذار» و«الحركة التصحيحية المجيدة (أو المباركة، لاحقًا)». أما أكثرُ الإنجازات، التي يشدِّد عليها دون أن ندركَ أهميتَها ومعناها، فهي «الدستور الدائم للجمهورية العربية السورية» و«مجلس الشعب» و«الجبهة الوطنية التقدمية.»

وبعد قليل، في الإعدادية والثانوية، نصبح «أشبالَ وفتياتِ الشبيبة،» وسيكون علينا أن نردِّد «العهدَ الشبيبيّ»: «عهدنا»؛ فنردّ بصوت واحد: «أن نتصدّى للإمبريالية والصهيونية والرجعية، ونَسْحقَ أداتَهم المجرمةَ، عصابةَ الإخوان المسلمين العميلة.»

ما نَفْهمه اليومَ أنّنا في تلك السنّ كنّا مُجْبَرين على تسخيرِ طاقاتنا الطبيعية وميولِنا العفوية لصالح أقنيةِ التعبيرِ السياسي السلطوية. فإضافةً إلى الدروس التثقيفية والتنظيمية التي تُقدِّمها منظّمتا «طلائع البعث» و«اتحاد شبيبة الثورة،» كانت المسيراتُ والاحتفالاتُ التي تُنظَّم في المناسبات والأعياد «الوطنية والقومية» هي الشكلَ الوحيدَ للمشاركة السياسية. وهكذا كنّا نَخْرج مزوَّدين بخطّ السير والهتافاتِ الجاهزة، مكتوبةً تبعًا للمناسبة. لقد كنّا أدواتٍ تهدِّد السلطةُ بها، وتَقْهر، جزءًا آخرَ من المجتمع، لمّا يلتحق بها بعد.

ثقافة المجرَّدات

قَدَّمتْ لنا دروسُ مادّتي «التاريخ» و«التربية الوطنية» ـ التي اتّخذتْ اسمَ «التربية القومية الاشتراكية» فيما بعد ورافَقَتْنا عبر

يَخْضع الطالبُ الجامعي السوري إلى أربعة أشكال من السلطات: سياسية/أمنية، وإدارية، ومعرفية، وسلطة المدرِّسين

أربع سنوات من الدراسة الجامعية تحت اسم «الثقافة القومية الاشتراكية» ـ شبكةً واحدةً ووحيدةً من المفاهيم تتكرَّر كلَّ عام، وتتمحور حول مصطلحات ثلاثة: الوحدة والحرية والاشتراكية. لم يتضمّن الجانبُ الإنسانيُّ والاجتماعيُّ من منهاجنا التعليمي، كما لم تَشْتمل الأنشطةُ الطليعيةُ أو الشبيبيةُ التي اندرجنا فيها، أيةَ منطلقاتٍ فكريةٍ أو سياسيةٍ خارجةٍ عن خدمة هذه المفاهيم. فالتاريخ والمجتمع يصادِقان عليها ويسيران سيرًا تقدميّاً ظافرًا لتحقيقها؛ دليلُها على ذلك: الإيقوناتُ التي تتصدّر كتبَنا المدرسيةَ، والمقتَبَساتُ المستلّةُ من خطبٍ ووثائقَ كلُّها «تاريخيةٌ، تقدميةٌ» و«نابعةٌ من حاجاتِ وآمالِ شعبنا وأمتنا.» وليس علينا إلا السيرُ صفّاً واحدًا وراء القيادة من أجل الوصول إلى النهاية السعيدة والحتمية.

والحقّ أنّني لا أدري كيف نشأ ذلك التواطؤُ بيننا وبين مدرِّسينا لتلافي أية أسئلة هرطقية، من ذلك النوع الذي يشكِّك في المعلومات الواردة في كتبنا. ولا كيف عَجزْنا عن نقلِ ما نَسْمعُه ونتداولُه همسًا عن النهب وأثرياء القطاع العام. ولا عن معنى الحرية، بوجود عشرات المعتقلين أو المفقودين في المحيط الاجتماعي لكلّ منا. ولا عن معنى الوحدة، مع تأزُّم علاقاتِ بلدنا ـ إلى درجة الاقتتال أحيانًا ـ مع الفلسطينيين ومع جزء من اللبنانيين ومع العراق ومع الأردن. لم نعرفْ، بأيّ حال، كيف نوفِّق بين مشاعرنا ومشاعرِ أهلنا المتعاطفة مع العراق من جانب، والخطابِ الرسميّ المؤيِّدِ لإيران من جانب آخر. ولم نعرفْ كيف يُمْكن أن نصوغَ إحساسَنا بالمفارقة في شعار «الاشتراكية» بين ما تَطْرحه الكتبُ، وما نَلْمسه في معاشنا؛ ولا بين شعار «اليدُ المنتجةُ هي العليا في دولة البعث،» وتغوُّلِ البيروقراطية الطفيليّة الفاسدة على مؤسسات القطاع العامّ ونهبِها اليومي والمكشوف لها. هكذا يُغلَقُ الإطارُ على عقولنا: فما نسمعه وما نشاهده هو ما نقرأه في كتبنا، وهو ما يتواطأُ أهلُنا معه خوفًا أو حرصًا أو تقيّةً. ويبدأ في التشكُّل، داخلَنا، ذلك الحسُّ الأعمى بعبثيةِ ما نتعلّمه، وبعبثيةِ الشعارات والأفكار والقيم. فلا رابط ملموسًا أو معقولاً بينها وبين حياتنا.

لكنّ ذاكرةَ الثمانينيات، ذاكرةَ طفولتِنا ومراهقتِنا، ليست «جهازَ» المدرسة وحسب، بل هي ربطةُ الخبز وعلبةُ السمنة وزياراتُ السجن أيضًا. وقتَها، كان ثمة إحساسٌ بانعدام الأمن، خَلَقَتْه الأخبارُ عن التفجيراتِ والاغتيالاتِ والمداهماتِ. وقد تحوَّل ذلك فيما بعدُ إلى إحساس دائم بانعدام الأمان، تعزِّزه يوميّاً الإجراءاتُ الأمنيةُ المشدّدة في مواقع الدراسة وغيرها من المؤسسات العامة، حتى ارتدّتْ علاقاتُنا الاجتماعية إلى جُزُرٍ صغيرة ضيقة لا تتّسع إلا لمن تَأْمن.

لم تكن الجامعةُ على ما كنّا نَحْلم به من انفتاح وتعددية. فإضافةً إلى كبح السؤال والنقدِ وتوفيرِ حقائقَ ثابتةٍ ونهائيةٍ عبر منهاجٍ ثابتٍ ومُقَرٍّ من قِبل القيادة القطْرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، فقد اعتدْنا إبرازَ بطاقات هويتنا للمسلَّح الواقفِ عند باب السُّور الخارجي للجامعة، وتَمَرَّسْنا في تمييزَ عناصر الأمن المندسّين بيننا وفي التعامل مع الموظفين والمدرِّسين المكلَّفين بمهامّ أمنية داخل الجامعة.

يَخْضع الطالبُ في الجامعات السورية إلى أربعة أشكال من السلطات ـ الأجهزة:

أ ـ سلطة سياسية/أمنية، هي الجهازُ الأمني والجهازُ البعثي (الفِرَق والشُّعب الحزبية) وجهازُ الاتحاد الوطني لطلبة سوريا.

ب ـ سلطة بيروقراطية، هي سلطة الجهاز الإداري. والانتسابُ إليه أو التعاونُ معه يعني نفاذًا وانتماءً إلى الجامعة، وإلاّ بقيتْ علاقةُ الطالب بالجامعة خارجيةً.

ج ـ السلطة المعرفية، أيْ سلطة النصِّ أو الكتابِ المقرَّر. وهي في أكثريتها ـ في ما يخصّ قسمَ الدراسات الفلسفيةِ والاجتماعية ـ تَجميعٌ من كتب أخرى، أغلبُها صادرٌ في مصر.

د ـ سلطة المدرِّسين، وهذه أضعفُ السلطاتِ جميعًا، مع إمكان تمتُّع بعضِ المدرِّسين بنفوذٍ استثنائيّ بفضل الأجهزة الأمنية أو الحزبية. فالميدان «المعرفي» ليس مستقلاً عن حاجات السلطة السياسية ـ الأمنية ومعاييرها، بل إنّ وظيفتَه الأبرز هي تعزيزُها وتبريرُها. والأكثر من ذلك، أنّنا وَصَلْنا الجامعةَ وقد

تحوّل الكادرُ التعليمي، وخصوصًا في مطلع التسعينيات، إلى إفرازٍ طبيعي وتاريخي واجتماعي، وامتدادٍ فكري، لسلطةٍ أمنيةٍ سياسيةٍ أحاديةِ التوجُّه.

خرجنا من الجامعة وقد تشكّلْنا بمنطق الأهواءِ والانفعالاتِ المكبوتة في الشكّل المغلقة، ودون التعرّف على قوة العقل والمحاججة والنقاش المفتوح. تخرَّجْنا بقدرةٍ على تبرير أيّ شيء، لكنْ دون قدرة **البرهنة** على شيء. وملايينُ الكلمات والهتافات والتبريرات التي ردَّدْناها ملايينَ المرات تركتْنا عُزّلاً في وجهِ تغيُّراتٍ لا تتوقّف كلَّ يوم عن دفعنا خطوةً نحو المجهول.

ألغام التاريخ القريب

ليس ثمةَ ولو ملمحٌ لاتفاقٍ عامٍّ عند جيلنا حول عنوانٍ لِما شهدتْه سنواتُ الثمانينيات، المليئةُ بالغرائز المنفلتة والأحداثِ الغُفل؛ إنّها في نظره، أو يراد لها أن تكون، منطقة محرّمة على العقل والتداول العلني. لكنّها، بأيّ حال، جزءٌ من تكويننا. والخيار هو بين أن نَرِثَها، وأن نتجاوزَها. خيارُنا هنا ليس واعيًا وإراديًا في الأحوال كافةً. فقد تسلّلتْ إلى عقولنا من خلال الرواية الشفهية، سريّةً وخائفةً وهوجاءَ وغريزيةً ومفككةً ومضطربةً ـ لكنّها لا تقلّ تفكُّكًا واضطرابًا عن الاعترافات التي شاهدناها وقتَها على شاشة التلفزيون، عندما يُقرّ أحدُ المتورِّطين بذَنْبه إذ عَرَضَ على صديقٍ له الاشتراكَ في عمليةِ تفجيرٍ بقوله: «شو رأيك نرتكب هالجريمة النكراء؟!»

الثقافة السياسية التي نَشأْنا عليها لم توفِّرْ لنا خياراتٍ حقيقيةً خارج «إرادة العدم» أو «عدم الإرادة» في أحسن الأحوال. العدمية القيمية والسياسية هي الأكثرُ شيوعًا. لقد وَرِثْنا أرضًا محروقةً سياسيًا. وليس من المتوقَّع، بطبيعة الحال، أن يبلور جيلُنا هويتَه السياسيةَ دون أن يمارسَ السياسةَ ودون أن ينخرطَ في صراعاتها، لكنْ أيضًا ليس دون تصعيدِ عواصف العقد التاسع من الصدور إلى العقول، وإخراجِها تاليًا من جدولِ أعمالِ المستقبل وترحيلِها إلى حيث يجب أن تكون: إلى التاريخ.

أزمةُ جيلنا شاملة: وجودية، إنْ جاز الوصفُ. إنّها مأزقُ اغترابٍ وتهميشٍ ناجزيْن، لن يكفينا للخروج منه الوقوفُ على مسبِّباته ونتائجه. فإنْ صحَّ أنّ الخروجَ من الاغتراب يأتي بعد أن يصل اغترابُ الأفراد إلى أقصى مدًى له، فربّما وَجَدَ جيلُنا نفسَه أمام مهمّة جبارة، هي التعرُّفُ على ذاته وصياغةُ خياراته بالعودة إلى السياسة بأشدِّ معانيها مباشرةً وأكثرِها اتساعًا.

وإذ يَصْعب التحدثُ عن «جيلنا» دون تجاوُزِ ما وَرِثه موضوعيًا ـ وأعني تراثَ الاستبداد وجنون العقد التاسعَ في المجتمع والسياسة والثقافة ـ فإنّ خيرَ ما يتوفّر هو السعيُ وراء ذلك بطريقة تقريبية، تَسْتخدم معيارَ الاختلاف مقياسًا لتشكُّلِ جيلٍ ولمغايرته للجيل السابق عليه. وهذا يعني تلمُّسَ معنى الاختلاف، بمعناه المباشر، في خبرة هذا الجيل، وفي مقاربته للمفاهيم السياسية والقيمية والاجتماعية والاقتصادية. فإنْ لم «يَخْتَرْ» عبر اغترابه وهامشيته، ترجمةَ «إرادة العدم» عنفًا وانتحارًا، كما فَعَلَ مئاتُ الشباب السوريين في العراق بعد غزوه، فإنّ خيارًا عقلانيًا لا بدّ أن يدفعَه إلى النضال من أجل رسم ملامح تطلُّعاته للمستقبل القريب، هنا وابتداءًا بالآن. وستتحدّدُ هويتُه وتتمايزُ بقدْرِ ما تدفعه خبرتُه ـ اغترابُه وتهميشُه ـ إلى صياغة شبكة جديدة من المفاهيم يَقْبضُ بها على صورة الذات والمجتمع والعالم، بقدْرِ ما يشكّل ثقافةً سياسيةً مختلفة، مفاهيمُها الأساسيةُ هي: التعدديةُ والديموقراطيةُ والتداولُ السلمي للسلطة والاعترافُ بالآخر والحريةُ والعدالةُ الاجتماعية.

أكثر نضاليةً

بدا ملموسًا غيابُ الشباب عن الحراك السياسي خلال السنوات الأربع الأخيرة في سورية. وربما لا يَجْهل أحدٌ أسبابَ ذلك. لكنْ، لا يبدو أنّ في وسع غالبية قوى المعارضة، التي حَرّكَتْ هذه النشاطات، توفيرَ خطابٍ جاذبٍ لجيل الشباب. فهي في الغالب بقايا تنظيماتٍ استنزَفَها الصراعُ في فترة الثمانينيات، وما زال معظمُها يَطْرح بقايا إيديولوجية مهلهلة.

خرجنا للتظاهر من أجل قضايا لا تمسُّنا مباشرةً، لكنّنا لم نجرؤ على النزول إلى الشارع للمطالبة بحقوقنا في العمل وحرية التعبير والتوزيع العادل للدخل القومي

وفي هذا لا يبتعد بعضُ هذه الأطراف في طبيعة خطابه عن منطقِ ومنطوقِ البلاغة الرسمية ومراميها. وعليه، فليس لنا أن ننتظر الكثيرَ منها.

إنّ تغييرًا حقيقيّاً وقَطْعًا فعليّاً مع تراث التدجين والاستبداد والشعاراتِ الناصلةِ اللونِ لا بدّ أن ينطلق من قيم وشعاراتٍ مختلفةٍ عمّا توارثتْه لعشراتِ السنين الأُسرةُ العتيدةُ لثقافتنا السياسية. التغييرُ والقطعُ، هذان، ليسا فعلاً سياسيّاً بحتًا، بل إنّ أُولى سماتهما هي المعرفة. وهذا يُطاول مجملَ المسلَّمات التي قامت عليها الثقافةُ السياسيةُ في المجتمع السوري. يبدأ، **أولاً**، من تحديد حقول الدولة والمواطَنة والوطن، وتحريرها من السلطة والولاء و«الصفّ الواحد.» لكنّ الصعوبة تَكْمن في الوجه **الثاني** من القطيعة، ألا وهو: بناءُ ثقافة سياسية ديموقراطية علمانية إنسانية، وهذه لا تأتي كحصيلةٍ معرفيةٍ ناجزةٍ وجذّابةٍ وفاعلةٍ ما لم ينخرط حَمَلَتُها في الفعل السياسي اليومي.

ما يُمْكن أن يَجْذب جيلَنا إلى الفعل هو معاينةُ الإحساس بقيمة الإنجاز، وبمشروعية الخطإ؛ والتخلُّصُ من لوثةِ «الخصوصيات» الثقافية والاجتماعية و«المنعطفاتِ التاريخية» للانفلات من كوابح العمل في الشأن العامّ عبر اعتناق معايير سياسية وقيمية شاملة وعالمية؛ والانفتاحُ غيرُ المشروط على المعطى الثقافي والحضاري الإنساني. عندها، يصبح بإمكان شعارات «العلمانية والديموقراطية والعدالة» أن تَرْسم آفاقًا جديدةً لجيلٍ يَصْنع هويتَه. لكنّ هذه، بدورها، لا تَعْمل بمعزلٍ عن سُلَّم القيم المتداول. وهذا وجهٌ آخرُ للعمل والصراع والتجديد. فقد كَرَّست الثقافةُ السياسيةُ الشائعةُ لعشرات السنين جملةَ ممارساتٍ، ووَطَّنتْ عددًا من القيم، تَحْملها طبقةٌ جديدةٌ بالفعل من زبائن النظام الاستبدادي.

يساعد المنطقُ الداخليُّ للنُّظُم الاستبدادية على اكتشاف واستثمار ظاهرة الفساد. لكنّ ما يزيد الأمرَ تعقيدًا في بلدنا أنّ الفساد تخطّى حدودَ الظاهرة، إلى صيغة المؤسسة. بل هو مؤسسةٌ عابرةٌ للمؤسَّسات والأجهزة، وذلك ما يزيد من حصانته وتجذُّره. والاستثمار السياسي له حَوَّله إلى رديفٍ سياسيّ واقتصاديّ وأمنيّ للسلطة. وفوق ذلك، جَعَلَه انتشارُه الواسع وعلنيتُه، بل وبداهتُه في المجتمع، تبريرًا مقبولاً ومأمونًا لإعادة إنتاج قيمٍ تقليدية وتخليفية.

فالشرف، على سبيل المثال، بما هو قيمةٌ اجتماعيةٌ وخارجيةٌ بالنسبة إلى الفرد، وقيمةٌ محوريةٌ في سلّم القيم في المجتمعات الراكدة، يصبح قيمةً مركزيةً معوِّقة لتشكُّل الإحساس بالكرامة الفردية، ما دامت جملةُ القيم والسلوكات المرتبطة به لا تَصْدر عن ضمير الفرد الحرّ المسؤول وإنّما عن طيف واسع من المواضعات الاجتماعية والسياسية المحافظة والتقليدية؛ ويحلّ الولاءُ والانتهازيةُ والمحسوبيةُ، مصحوبةً بغياب الرقابة الاجتماعية والمساءلة القانونية، محلَّ الكفاءة والجدارة والعمل المنتج بوصفها معاييرَ حديثةً.

وهذا ميدانٌ يُمْكن جيلَنا أن يعلنَ فيه انحيازَه لأحكام الضمير وأولوية الكرامة الإنسانية، مجسَّدةً في كلّ فرد، كقيمة مركزية للفضائل والاستحقاقات جميعًا، ومبرِّرًا كافيًا لنيل الحقوق والحمايات والضمانات كافةً.

بلدُنا، إلى أين؟

في سوريا، لا بدّ أن يؤدّي تخفيفُ القبضة الأمنية على شؤون الأفراد اليومية، وازديادُ حدّة التفاوت في توزيع الدخل والثروة، إلى أن يدفعا المزيدَ من الأفراد إلى دائرة العمل المباشر في الشأن العامّ. ولا بدّ من أن تكون غالبيةُ هؤلاء من جيل القدر. إنّ استقراءً لأحوال البلدان التي خَرَجَتْ من حكم أنظمة الحزب الواحد إلى التعددية السياسية والديموقراطية يشير إلى أنّه يَلْزمها عقدٌ ونصفٌ من السنين، في المتوسّط، للتحرك بفاعليتها الذاتية خطوةً إلى الأمام. لكنّ طبيعة الترتيبات الإقليمية الجارية الآن قد لا تتيح هذا العددَ من السنين للمجتمع في سوريا ليبني قواه الذاتيةَ، وهذا يتطلب أكثرَ من مجرد مناشدات وجدانية وخطاب مطلبيّ يتوجّه إلى السلطة. المطلوب هو بناءُ خطاب يتوجّه إلى **المجتمع**، بوصفه الضامنَ الحقيقيَّ لوحدة مكوِّناته البشرية وللسِّلْم الأهلي ولتماسكِ الدولة.

جـــــــيـل الـقـــــــدر

نحن، إلى أين؟

إنّ تثميرًا لحال التململ والاستياء والقلق التي تعمّ المجتمعَ السوري لا بدّ أن يعني تنظيمًا لأولويات أفراده الوطنية والقيمية والإنسانية، وإتاحةَ الفرصة أمامهم لترتيب وعيهم بهذه الأولويات بأنفسهم ومن أجل أنفسهم. والمعنيُّ الأول بهذا العمل هو الجيل الشابّ ـ فهو الأكثر تهميشًا وبلبلةً وتشتّتًا، وعليه، فإنّه هو صاحب المصلحة في استقبال هذا التوجّه والانخراط فيه.

إنّ طغيان الإيديولوجيات الشمولية، في السلطة أو في المعارضة، هو ما يُفْرغ الطلبَ على الإصلاح من بداهته وضرورته. وهذا ما سَهّلَ، على سبيل المثال، خروجَنا في مناسبات عديدة مؤخّرًا للتظاهر من أجل قضايا لا تمسُّنا بشكل مباشر (التضامن مع الانتفاضة، التنديد بالحرب على العراق...)، لكنّنا لم نجرؤ ولا نجرؤ حتى الآن على النزول إلى الشارع للمطالبة بحقوقنا في العمل وحرية التعبير والتوزيع العادل للدخل الوطني وسواها من مطالبَ تمسّ حياتَنا اليومية، وتساهم بجانب منها ـ في حال تلبيتها ـ بإضفاءِ الجدّيةِ والمصداقية على خروجنا من أجل فلسطين أو العراق.

إنّ التحوُّل من المجرَّد والعموميّ إلى العينيّ والمخصوص لا يعني إسقاطًا للشعارات والأهداف البعيدة، وإنّما امتحانًا موضوعيّاً وفعليّاً لقابليتها للتحقق، وملاءمتها لواقع الحال، وانعطافًا بالاهتمام بالشأن العامّ من الصيغ والأراجيز الإيديولوجية المعلَّبة إلى الممارسة السياسية المفتوحة والمتحركة والنسبية هنا والآن.

ربما تكون المسألةُ الأكثرُ أهميةً اليوم، بالنسبة إلى جيل ينتظر تصاريفَ القدر، أن يتعرّف عبر الفعل على ما يريد، وأن يفعل بإرادته ما يريد. وبكلام آخر، أن نحيا ونفكّر ونعملَ في نظام اجتماعي وسياسي واقتصادي وثقافي نَفْهمه، ولنا فيه تأثيرٌ، ونَشْغل فيه أدوارًا ووظائفَ نفهمها ونقدِّرها نحن ويَفْهمها ويقدِّرها الآخرون. نريد أن نحيا ونفكّر ونعمل في فضاءٍ بشريّ مُعقلن.

إلا أنّ طرح هذا المطلب ليس بدهيّاً ومستقلاً عمّا سواه، إذ إنّه يَخْتزل مجملَ المطالب اليومية لعموم الحراك الثقافي والسياسي في سوريا اليوم. لكنّ ترجمته تحتاج إلى مقدّمة ليست متوفرةً في واقع الحال؛ فتجسيدُه في فعلٍ يَفْترض الحريةَ سلفًا، وإنْ كان هو ذاتُه يتضمّن طلبًا ملحّاً على الحرية.

في الحرية، حريتِنا كأفراد أولاً، نفيٌ لذواتنا المهمَّشة والمغيَّبة. ذلك لأنّ الحرية هي شرط الوجود الإنساني السويّ في المقام الأول، ولأنّنا بالحرية نتجاوز المعطى والظرف ونَفْتح أمام الآخرين معطى وظَرفًا أكثرَ اتساعًا وغنًى.

الحرية والكرامة والعمل المنتج هي قضايا ينبغي صنعُها دومًا، ويجب ألاّ تَحُولَ العوائقُ دون العمل على إعادة إنتاجها في كلّ جيل. وباستطاعة جيلنا أن يباشر إعادةَ الاعتبار إلى العمل بالشأن العامّ بوصفه ممارسةً نضاليةً، بعد أن حوّله كثيرون إلى إدارة بيروقراطية للشعارات والتضحيات.

خليل الحاج صالح

باحث من سوريا.

الشباب والإسلام السياسي في سوريا

حسام جزماتي

حقبة التأسيس

لا أحد يَعْرف مَن الذي أَطْلَقَ اسمَ «الأحداث» على الصِّدام العنفي المسلّح الذي وقع بين المعارضة الإسلامية والسلطة السورية في أواخر سبعينات القرن الماضي وأوائل ثمانيناته. غير أنّ هذا التعبير الشعبي غيرَ الدالّ على مضمون محدَّد لا يكتسب محتواه التجهيلي في ذهن أحدٍ من السوريين قَدْرَ ما يكتسبه في أذهان شبابهم، الذين وُلِدوا قبيلَ هذه «الأحداث» أو أثناءها.

فالحقّ أنّ هذه الحقبة، التي أَسّستْ فعليّاً لعلاقة المجتمع السوري بحركات الإسلام السياسي، حقبةٌ مجهولةٌ بشكل شبهِ تامٍّ بالنسبة إلى أولئك الشباب: فهم لم يشهدوها، ولم يقرأوا أو يسمعوا عنها معلومات واضحةً او وافيةً، وإنْ كانت آثارُها عليهم بيّنةً بحكم تشكُّل معارفهم ووعيهم في الفضاء السياسي والأمني والثقافي الذي نَتَجَ عنها.

كانت المعارضة الإسلامية قد رَكّزتْ على دور الشباب في «إقامة حُكْم الله على الأرض،» لأنّ «العصبة المؤمنة التي تركّزتْ في دار الأرقم، وعلى يديْها تحقَّقَ نصرُ الإسلام، كانوا شبابًا،» بحسب كتابٍ دعائيٍّ موجّهٍ إلى الشباب كَتَبَه أحدُ المشايخ الجهاديين للإخوان، وطُبع طبعاتٍ عديدةً منذ أواسط السبعينات.[١] ودعا المؤلِّفُ الشبابَ بحماس إلى العمل من أجل إقامة الحكم الإسلامي: «شيِّدوا بسواعدكم الفتيّة صَرْحَ الإسلام العتيد. أعيدوا بعزائمكم المتينة مجدَ الجدود العريض. ضعوا نصبَ أعينكم إحدى الحُسْنَيَيْن: إمّا نصرًا لتعيشوا أعزّاء، وإمّا قتلاً لتموتوا شهداء.»[٢]

وفعلاً كانت معظمُ كوادر وقيادات «الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين» من الشبّان الجامعيين. وكذلك كانت كوادرُ التنظيم العامّ (الإخوان المسلمون) التي شاركتْ، دون إذن القيادة أولَ الأمر، في التحركات الميدانية. ولمّا لم يكن منحُ هؤلاء الشباب «النصرَ» احتمالاً واردًا لدى السلطات السورية، فقد مَنَحَتْهم «الشهادةَ» كلّما تسنّى لها ذلك! وانهارت المعارضةُ الإسلاميةُ إثر القضاء على العصيان في مدينة حماة في شباط ١٩٨٢. وإضافةً إلى مَنْ قُتِل، دخلَ آلافٌ من أعضاء الإخوان المسلمين السجونَ.

وإذا كان معارضون من مختلف التيارات السياسية المنظَّمة وَجَدوا طريقَهم إلى السجن وقتَها، فإنّ التعاملَ الثأري وسياسةَ الاستئصال كانا من نصيب الإسلاميين وحدهم. لقد ظلوا لسنوات طوال مقطوعي الصلة بالعالم الخارجي، وفي ظروف من القهر الجسدي والنفسي أَخَذَتْ أخبارُها تتسرّب لتعطي مفعولَها التأديبيَّ الذي عمَّ سوريا الثمانينات ـ ومازال تأثيرُه قائمًا حتى اليوم.

أما الناس، وقد ارتدُّوا خائبين من مغامرتهم الإخوانية، بشعور مَنْ تورَّطَ في حماسٍ مُبالَغٍ فيه، فقد استعادوا «الحقائقَ» التي غَفلوا عنها زمنًا: مِنْ لاجدوى مقاومة السلطة، وضعفِ المعارضة، وسعيِها المفترض إلى الاستيلاء على السلطة لغايات شخصية. وأمام دائرة الاشتباه، لم يَجِدِ السوريون مَنْ يحمّلونهم المسؤوليةَ سوى الإخوانِ أنفسِهم الذي قادوهم إلى مغامرةٍ خرقاء. وبالتوازي مع الدعاية الرسمية الكثيفة وَصَلَتْ شعبيةُ الإخوان إلى الحضيض.[٣]

تشكّلتْ شخصيةُ سوريِّ الثمانينات ـ وأعني أبا الشابّ السوري اليومَ ـ من الحرص البدائي على المصلحة الشخصية، والخصاءِ أمام الأجهزة الأمنية ونظائرها، والنظرِ إلى السلطة القائمة كمسلَّمَةٍ أبدية، وتجنُّبِ العمل السياسي الداخلي ـ وهو تجنُّبٌ يرقى إلى مرتبةِ «فوبيا» راضّةٍ في حالة الإسلام السياسي، أو كُلِّ ما يُمْكن أن يكون طريقًا إليه، مثل: حضور الدروس الدينية، أو التردُّدِ إلى المساجد، وإظهارِ أمارات الالتزام السلوكي بالإسلام.

---

١ ـ ٢ ـ عبد الله ناصح علوان، **حتى يَعْلم الشباب** (القاهرة، بيروت، حلب: دار السلام، ط ٧، ١٩٩٠)، ص ٨، ١٥٣.

٣ ـ الكتاب الجامع لهذه الدعاية الرسمية هو: **الإخوان المسلمون: نشأةٌ مشبوهةٌ وتاريخٌ أسود** (دمشق: مكتب الإعداد في حزب البعث العربي الاشتراكي، ٤ أجزاء، ١٩٨٤ـ ١٩٨٥).

الشباب والإسلام السياسي في سوريا

لكنّ طيفًا واسعًا من المجتمع السوري محافظٌ، يلوّن التديُّنُ الإسلاميُّ عددًا كبيرًا من سلوكاته الشخصية والاجتماعية. أمّا وقد أُلجئَ الآن إلى التقلّص في حدوده الدنيا، خوفًا من الاستباقية الأمنية، فقد بدأ عددٌ من شيوخه ورموزه المستقلّين بالبحث عن حلّ. ولم يكن الحلّ سوى تطمين الأجهزة الأمنية والسياسية إلى تباينهم المنهجي والسلوكي مع الإخوان. ولم يكونوا في هذا مُدّعين أو مناورين: فمعظمُهم خصومٌ أصيلون للنهج الإخواني ولمختلف تيارات الإسلام السياسي، ومعظمُهم «مشايخُ» تقليديون يُعْنون بتدريس العلوم الشرعية للعامة أو ببثّ روح التصوف والأخلاق الإسلامية. وبالتوازي مع تخفيف القبضة الأمنية عنهم، حَرِصَ هؤلاء المشايخُ على «تعقيم» الجوِّ المحيط بهم من كلِّ ما يمكن أن يثير «فتنةً» تعيد البلدَ إلى ما عاناه من «بلاء.» وألحّوا على تلاميذهم ومريديهم المتكاثرين بأن ينشغلوا بـ «طلب العلم» و«تهذيب النفس.» وتجنّبوا الإشارةَ إلى أيّ عمل عامّ سوى العمل الخيري. وكلما لزم الأمرُ، كانت مواقفُهم، ومواقفُ مريديهم، «غيرَ إخوانية» بل و«ضدَّ إخوانية» كذلك.(١)

وآتت هذه السياسةُ أُكُلَها. فمنذ التسعينات أخذت الروحُ تعود إلى هذا الجسد الكبير المؤلَّف من عشرات الألوف من المتديِّنين المُلْتحين والمتديِّنات المحجَّبات، الأمرُ الذي عنى لكثيرٍ من المراقبين العلمانيين في سوريا عودةً إلى الإسلام السياسي، بينما كانت الأمورُ تمشي في اتجاه آخر.

نتيجةً لكلِّ ما سبق، تتكوَّن نظرةُ الشباب اليوم إلى الإسلام السياسي. وهي نظرةٌ لا تَحْمل أيَّ مضمون، بسبب التجهيل وعدم الاحتكاك. وهو أيضًا الجيلُ السوريُّ الوحيد الذي رَبَّتْه إداراتُ المدارس على التكرار كلَّ صباح ـ بعد ترديده شعارَ حزب البعث والولاءِ للقيادة ـ على أن يعاهِدَ على «التصدّي للإمبريالية والصهيونية والرجعية،» وعلى «سَحْق أداتهم المجرمة، عصابةِ الإخوانِ المسلمين العميلة» دون أن يَعْرف عنها شيئًا!

مواقف الشباب السوري من الإسلام السياسي

إذا أردنا أن نَرْصد شرائحَ الشباب السوري اليوم، ومواقفَهم المحتملةَ من تيارات الإسلام السياسي، فإنّنا يُمْكن أن نُجْمِلَها في الآتي:

١ ـ الجسم العامّ: وهو الذي يضمّ، حسبَ تقسيمنا، العددَ الأكبرَ من طلاّب الجامعات والمعاهد السورية ومتخرِّجيها الجدد. وهؤلاء هم أحدُ إفرازات الحداثة، بصيغتها السورية. فهم حريصون على إتقانِ اللغات الأجنبية، ولاسيّما الإنكليزية، وإتقانِ استخدام الكمبيوتر، بحثًا عن فرص عمل متميزة داخل البلد أو خارجه؛ وهم ضعيفو الاهتمام السياسي والثقافي؛ معنيّون بالوصول إلى أقصى حدّ من التغرّب في السلوكات اليومية، وصولاً إلى العلاقات الجسدية. وهم في الوقت نفسه مؤمنون بالإسلام، يدافعون عنه بحرارةٍ وقلةِ خِبرةٍ أمام ملحدٍ مصابِف. وكثير منهم يحافظ على الشعائر الإسلامية؛ فمعظمُهم يصوم رمضانَ، وقسمٌ كبيرٌ منهم يصلّي، وإنْ دون مواظبة. وهم يعيشون التناقضَ بين سلوكاتهم بأقلِّ حدٍّ من الارتباك، وفي صدرِ كلٍّ منهم يتعايش قلبان: الحداثةُ والدين.

أما موقفهم حيال الإسلام السياسي فهم يؤيِّدون ـ بتأثيرِ الإعلام السوري والعربي ـ حركاتِ المقاومة الإسلامية خارج سوريا كحزب الله وحماس، وصولاً إلى بن لادن في كثير من الأحيان. أما عن الإسلام السياسي **داخل** سوريا، فهم لا يَمْلكون عنه أدنى فكرة، ولا ينشغلون بالبحث عنه. وهم «ديموقراطيون» محايدون، لا يمانع القسمُ الأكبرُ منهم في قيام حزب إسلامي سياسي في سوريا. غير أنّ أحدًا منهم لا يفكّر في إقامة «الدولة الإسلامية،» ولم يسمعْ بأسماء مثل مصطفى السباعي أو مروان حديد.

ومن الشريحة الأكثر تديُّنًا في أوساط هؤلاء، تكوَّنتْ مجموعاتٌ صغيرةٌ وقليلةٌ اعتنتْ بالترويج لفكر الداعية المصري الشبابيّ

١ ـ إضافةً إلى الشيخ كفتارو والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، اللذيْن يُذْكران كثيرًا في هذا السياق، هناك عشراتُ المشايخ الصوفيين والمدرِّسين الفقهيين ذوي الثقل الشعبي، ممن ينطبق عليهم هذا التوصيفُ. وربما كان كلُّ شيخ أو مدرِّس ديني في أيٍّ من مساجد سوريا مضطرّاً إلى سلوك هذا السبيل طوال الثمانينات والتسعينات.

بسبب السياسة الرسمية، لا وجود فعلياً للإسلام السياسي لا في واقع الشباب السوريين ولا في مشاريعهم

عمرو خالد، والمشاركةِ في تنفيذِ فكرةِ «صناعة الحياة» التي دعا إليها. لكنّ نشاطاتهم اقتصرتْ على توزيع ملصقات لمكافحة التدخين، وجمعِ تبرُّعاتٍ عينيّةٍ بسيطةٍ لأعمال خَيرية.

ويعبِّر كثيرٌ من هؤلاء الشباب عن ذواتهم واهتماماتهم في المنتديات الشبابية على شبكة الانترنت،[١] وفي غُرَفِ «الشّات» السورية والعربية.[٢] وتقتصر هذه الاهتماماتُ على رومانسية بسيطة غير مَعيشة، والاستماع إلى الأغاني، وطرح بعض الموضوعات ومناقشتها من دون عمقٍ في غالب الأحيان.

٢ ـ المتديِّنون: وهم، في تقسيمنا، الشبابُ الذي يَعْتبرون الدينَ المكوِّنَ الأساسيَّ في حياتهم. وغالبيتُهم في سوريا من المنتظمين في سِلْكِ التلمذة على شيخٍ محدَّد، مدرِّسًا شرعيّاً كان أو موجِّهًا روحيّاً «صوفيّاً.» ويُعنَى هؤلاء بإبراز هويتهم الدينية في كثير من الأحيان، ويَدْعون الناسَ إلى الالتزام بما هم عليه. وهم محافظون على الشعائر الإسلامية، مبتعدون قدرَ الإمكان عن المعطيات السلوكية الوافدة عبر الفضائيات الفنية والترفيهية. لكنّهم غير منشغلين بإقامة «الدولة الإسلامية.» ويقتصر «أمرُهم بالمعروف» و«نهيُهم عن المنكر» على الدوائر القريبة، من عائلية وسواها. ثم إنّهم قد وَرِثوا من أشياخهم نفورًا أصيلاً من حركات الإسلام السياسي، وهم ـ وإن اشتركوا معها في كثير من الجزئيات ـ غيرُ مؤهَّلين للانضمام إليها. وسواء أقام حزبٌ إسلامي أمْ لا، فإنّ مرجعيتَهم الأولى والأساسية هي شيوخهم المباشرون، أو نوابّهم المحليون إنْ كان جسدُ الجماعة كبيرًا ـ كما هو حالُ كثيرٍ من مشيخات الطرق الصوفية.

٣ ـ طلاّب الكليّات والمعاهد الشرعية: في سوريا كليّةٌ رسميةٌ وحيدة لتدريس الشريعة الإسلامية، في جامعة دمشق. غير أنّ فيها فروعًا تدريسيةً لجامعات شرعية **غير** سورية، كجامعة الأزهر المصرية، وكليّة الدعوة الليبية، وجامعة أمّ درمان السودانية. كما أنّ فيها عددًا من المعاهد الشرعية (الثانوية) العامة والخاصة التي تتوزّع في كلّ المدن وتُعنى بتخريج الخطباء والأئمّة والمدرّسين الدينيين. ويبلغ عددُ المنتظمين في مجمل هذه المؤسسات التعليمية عدةَ آلاف. ورغم أنّ المهمة المعلنة لهؤلاء هي إشاعةُ الروح الإسلامية في المجتمع، إلاّ أنّ المهمة تَقْتصر عمليّاً لدى الكثيرين منهم على الانضمام إلى سِلْكِ رجال الدين، بما يعنيه ذلك من القيام على أمر الشعائر الدينية في المساجد، و«الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر» في حدودٍ لا تتوسّع لتَطْلُبَ أسلمةَ الدولة والمجتمع. وربّما اطّلع بعضُ هؤلاء على جزء من أدبيات الإسلام السياسي المنوَّعة في سوريا، إمّا بحكم التوسع في القراءة خارج المدرسة أو بحكم الاحتكاك بالطلبة الوافدين من البلاد العربية والإسلامية. إلاّ أنّ هذا الاطّلاع لم يَقُدْ أحدًا منهم إلى تبنِّي تلك الأفكار، بل كانت في كثير من الأحيان موضوعًا للردّ والنقض، كما جرى في عدة أطروحات جامعيةٌ قُدِّمتْ في كلية الشريعة في جامعة دمشق.

وإضافةً إلى هذه البنية التقليدية، هناك عددٌ قليلٌ من هؤلاء الطلبة ممن تأثّر بأطروحات التجديد الإسلامي المعاصرة ـ وهي بمجملها أطروحاتٌ مناهضةٌ للإسلام السياسي، ومنشغلةٌ بإعادة بناء «العقل الإسلامي» على أسس حديثة.

٤ ـ العلمانيون: وهم الذين يَمْلكون موقفًا واضحًا ومعلنًا من رفض الإسلام السياسي، والوقوفِ في وجه مشروع إقامة «دولة إسلامية» في سوريا. وينقسمون إلى قسمين. أما القسم الأول فمثقفون مسيَّسون في أحد الأحزاب السورية القائمة، وعددُهم قليلٌ نظرًا إلى ضعف الأحزاب السورية واكتهالها. وهؤلاء هم الأكثرُ معرفةً بطروحات الإسلام السياسي ورموزه، عبر المراجع المضادَّةِ له من كتابات المصريين وسواهم من الكتاب العلمانيين، أو مِنْ كِتاب **الإخوان المسلمون : نشأةً مشبوهةً وتاريخٌ أسود** الذي نشرتْه السلطةُ السوريةُ في سياق رَفْدِ حربها المسلّحة ضدّ الإسلاميين بنضال إيديولوجي. ورغم معارضة هؤلاء الشباب غالبًا للسلطة السورية، فإنّهم يتّفقون

١ ـ مثل منتدى شبابلك، ومنتدى شباب سوريا، وموقع مزاجيّات، ونوادي الحوار السورية.

٢ ـ www@syriaroom.net

الشباب والإسلام السياسي في سوريا

معها في الموقف من «الإخوان المسلمين،» وإنْ دان بعضُهم العنفَ الزائدَ الذي وُجِهَتْ به هذه الحركةُ.

أما العدد الأكبر من الشبّان العلمانيين السوريين فقد أخذ موقفَه هذا نتيجةَ تَحَدُّره من إحدى الطوائف الإسلامية غير السُنّية، التي وَرِثتْ توجُّسًا تقليديّاً من سيطرة المسلمين السُنّة على الحياة السورية العامة. وبالرغم من معارضة بعض هؤلاء الشباب للسلطة، فإنّ خيار إقامة دولة إسلامية يبدو لهم أسوأ بما لا يقاس من النظام القائم الآن. وفي أحيان كثيرة لا يفرِّق هؤلاء بين الإسلام السياسي ومَظاهرِ التديُّن العادي والمشايخ التقليديين أو الجدد.

ويَنْدر الشبابُ الذي يَحْملون موقفًا علمانيّاً مستقلاً، غيرَ نابعٍ من معطيات التحدّر الأوسع (الطائفة) أو الأضيق (العائلة)، التي كثيرًا ما تكون منشبكةً بالحزب السياسي أو التيار الذي ينتمي إليه الشابُّ.

٥ ـ المهنيّون: هم الشبّان الذين تعثَّرَ طريقُهم الدراسي فاتّجهوا إلى الاشتغال المبكّر في المِهن والحِرَف المختلفة. هذه الشريحة هي الأقلُّ عنايةً بالشأن العامّ عادةً، إذْ يَشْغلُها عنه البحثُ عن إتقان العمل وكسب العيش. وهي شريحةٌ محافظةٌ ذهنيّاً واجتماعيّاً، وإنْ كان كثيرٌ من أفرادها غيرَ ملتزمين بالأوامر والنواهي الإسلامية. وتبدو الشريحةُ هذه غيرَ معنيّةٍ بالإسلام السياسي من قريب أو بعيد، رغم أنّها قد تُقدِّم له بعضَ وقوده في حالات الحماس العامة، كما جرى عند غزو الأميركيين للعراق قبل سنوات قليلة. فَتَحْتَ تأثيرِ المزج بين شعارات إسلامية حماسية، و«النخوةِ» لمساندة الإخوة في العروبة والإسلام، والإعجابِ الجزئيّ أو المكتمل بشخصية صدّام حسين، وَجَدَ البعضُ ـ ولاسيَّما من التجمعات الإسلامية الأكثر ريفيةً أو بداوةً ـ طريقَه إلى العراق، وسط تأييد الأصحاب والمجايلين وإعجابهم.

٦ ـ الإسلاميون: وهم الذين يؤيِّدون قيام دولة «إسلامية» في سوريا، ويؤيِّدون «الإخوانَ المسلمين» أو «حزبَ التحرير الإسلامي» أو تيّاراتِ السلفية الجهادية الإسلامية الراهنة. وهم أفراد قليلون، بعضُهم أبناءٌ لأعضاء في «الإخوان المسلمين» نجحوا في الفرار أيام الثمانينات، وأقاموا في إحدى دول الخليج؛ وبعضُهم من بقايا «حزب التحرير» الذي قَصَمَت اعتقالاتُ عامِ ٢٠٠٠ ظَهْرَ بنيته التنظيمية السورية؛ وبعضُهم الثالث أفرادٌ معزولون وَجَدوا طريقًا إلى أدبيات السلفية الجهادية، وقد يجمع بعضُ هؤلاء أنفسَهم في «جماعة» معزولة تتألف من بضعة أشخاص يتبادلون الأقراصَ الليزريةَ الحاوية على دروس أو خطبٍ أو بياناتِ بعض رموز السلفية الجهادية، غير أنّ «الجماعة» هذه سرعان ما تتبعثر دون أن تؤدِّي دورًا يُذْكر.

الإسلام السياسي وآفاق المستقبل

وفي الختام، لا يبدو التباهي الرسميُّ السوريُّ بالقضاء على «الإرهاب» منذ الثمانينات تباهيًا مجانيّاً. فقد أفلحتْ سياسةُ التعقيم وتوسيع دائرة الاشتباه في الوصول إلى النتائج التي سَبَقَ وصفُها، والتي يمكن تلخيصُها بأنّه لا وجود فعليّاً للإسلام السياسي لا في واقع ولا في مشاريع الشباب السوريين. لكنّ هذا يبقى محدودًا بحدود الحاضر، أمّا في المستقبل فربما استطاعت حركةٌ إسلاميةٌ معتدلة وذاتُ ميول ليبرالية استقطابَ عددٍ من الشبّان من مختلف الشرائح التي سَبَقَ تمييزُها، ولاسيما الشريحة الأولى التي لم تبلورْ موقفَها من أيّ شيء بعد. وربما استطاع ذلك «الإخوانُ المسلمون» أنفسُهم. لكنّ ذلك لن يتجاوز تشكيلَ كتلةٍ ذاتِ وزن متوسط في شارع سوريّ مقبل، ومن غير المرجَّح أن يصل إلى حدود اكتساح «الشارع» كما يتوهّم علمانيون سوريون متشددون.

وربما استطاع سلفيون جهاديون، في ظروف خلخلة أمنية وسياسية واجتماعية، القيامَ ببعض الأعمال الميدانية التي تقتطعُ لنفسها نصيبًا بارزًا في وسائل الإعلام العربية. غير أنّ المجتمع السوري والإسلام السوري ليسا تربةً خصبةً للسلفية الجهادية المنظمة.

حسام جزماتي
كاتب سوري.

ندوة: الشباب السوري والمشاركة السياسية

المشاركون: رزان زيتونة، سعاد جروس، علي سفر
أدار الندوة: ياسين الحاج صالح

ندوة

من المألوف أن يقال إنّ مجتمعاتنا شابّة، لكن الأكثر شيوعًا هو الحديث عن شيخوخة المجتمع السياسي في بلادنا، وشيخوخة الناطقين السياسيين والثقافيين باسمه! في هذه الندوة شابّتان وشابّ، من مرحلة الشباب المتأخّر، يتحدّثون عن الشباب والسياسة. كان في خطّتنا الأولية عقدُ ندوة ثانية لشبان في بدايات المرحلة الجامعية، لكنّ حجمَ الملفّ واعتباراتٍ أخرى دفعتْنا إلى العدول عن ذلك. ونأمل أن تُطْلق هذه الندوة نقاشًا شبابيّاً حول المحاور المقترحة أو محاور أخرى لم نُغَطِّها.

عُزوف الشباب السّوري: السلطة والأحزاب

ياسين: هناك انطباعٌ منتشرٌ في سورية عن عزوف الشباب عن العمل العامّ والسياسة. هل هذا الانطباع صحيح بوجه عامّ؟

سعاد: إنّه انطباع صحيح إلى حدّ بعيد. هناك عوامل كثيرة هَمّشت المجتمعَ ككلّ وأَقْصَتْه عن السياسة. بالنسبة إلى جيل الشباب، تحديدًا، فقد تكون مرارةُ تجربة الثمانينات جَعَلت الابتعادَ عن السياسة رأسَ الحكمة لدى الآباء، ودفعتْهم إلى تحذير أبنائهم من مخاطر السياسة. والأبناء، بدورهم، قَبِلُوا ذلك لغيابِ تجربةٍ تُثْبت العكسَ.

ياسين: وما هي التجربة المرّة التي أبعدتِ الشبابَ عن العمل السياسي؟

سعاد: أتحدث عن نفسي: فأنا أنتمي إلى فئة لم تكن طرفًا في ما شهده عقدُ الثمانينات، وكان بعيدًا عن أيّ موقف. ومع ذلك فأنا لا أنسى اليومَ الذي شَهِدَ تفجيرَ شارع الأزبكية في دمشق.[1] حينها، كانت أختي طالبةً في كليّة الفنون، القريبة من مكان التفجير، فتلقَّتْ أسرتي ـ التي تعيش في حمص ـ الخبرَ بهلع وقلق، وكان صعبًا معرفةُ مصير أختي بسبب قَطْع الاتصال مع العاصمة. أَذْكر وجهَ أمي الباكي، وهي جالسةٌ خلف باب الدار، وعينُها على الشارع بانتظار أيِّ قادمٍ من دمشق. أما والدي فكان ينقّل مؤشّرَ الراديو بعيدًا عن مسامعنا، لالتقاط إشارةِ إذاعةٍ محظورةٍ بغيةَ معرفةِ ما يجري. كان يومًا عصيبًا، وأنا أستعيده من الذاكرة الآن مع جملةِ مشاهدَ أخرى لا تقلّ عنه إثارةً للذّعر: كمشهد شبابٍ قَضَوْا في تفجيرات أخرى؛ وصورةِ أمِّ أحدِ المعتقلين تَحْضر دائمًا في كلّ الجنازات، أَعَرَفَتِ الميتَ أمْ لا، لأنّ تلك هي فرصتُها الوحيدةُ للبكاءِ بصوت مسموع بدلاً من التزام الصمت التامّ المفروض عليها! إنّها مَشاهدُ لا تنسى، الفجيعةُ فيها عاقبةٌ حتميةٌ للسياسة.

علي: أريد أن أعلّق على رأي سعاد. فأنا أرى أنّ ظرف الثمانينات كان نتيجةً لا سببًا. ففي الثمانينات أصبحنا نَحْصد النتائجَ؛ وأنا أريد أن أُحيل الأمر على استقالة المجتمع بشكل عامّ، وجيلِ الشباب بشكل خاصّ، من العمل العامّ. ذلك أنّ هذه الاستقالة تعود أسبابُها، بشكل أساسي، إلى عام ١٩٥٨، وهو تاريخُ قيام الوحدة بين سوريا ومصر، وإلى فترة الانفصال (١٩٦١ ـ ١٩٦٣)، وإلى ثورة ٨ آذار لاحقًا، وقدوم قوةٍ سياسيةٍ أرادتْ أن تَحْكم المجتمعَ عبر أدواتٍ رأتْها مناسبةً لتطبيق مشروعها السياسي.

سعاد (مقاطِعةً): لم أقل إنّ عزوف الشباب بدأ في الثمانينات. بل إنّ جيلي، الذي تفتّحتْ طفولتُه على تلك المآسي، لا بدَّ أن يخاف من السياسة.

ياسين: ما هي برأيكَ، يا علي، مظاهرُ عزوف الشباب عن العمل العامّ؟

علي: المظاهر تتحدد عبر التالي: أغلبُ قيادات هذه الأحزاب السياسية هَرِمةٌ لا شابّةٌ. وإذا سألتَهم لماذا قياداتُكم هرمةٌ، يجيبونَكَ بأنّ جيل الشباب لا يندفع إلى العمل السياسي. لكنّني

١ ـ الإشارة هنا إلى عمليّة إرهابية وقعتْ في منطقة الأزبكية بدمشق في ١٩٨١/١٠/٩ . لم تُعلن السلطاتُ عددَ ضحاياها لكنّه يقدَّر بالعشرات على الأقلّ من المدنيين. نَسَبَتْها السلطاتُ إلى الإخوان المسلمين، ويَنْفي هؤلاء بشدّةٍ مسؤوليتَهم عنها.

ندوة: الشباب السوري والمشاركة السياسية

أقول إنّ الانكفاء عن العمل العامّ ينطبق على المجتمع بشكل شامل. ولعلّ السبب يعود، تحديدًا، إلى وجود «قانون الطوارئ» الذي يَمْنع أيَّ نشاط فرديّ من دون الرجوع إلى المسموح الأمني، الأمرُ الذي وَلَّدَ نفورًا عند كلّ الناس (لا الشباب وحدهم) من العمل الأهلي أو المجتمعي. ونحن لم نَرَ أيَّ مجموعة شبابية تقوم بعمل عامّ دون أن تكون مرتبطةً بإحدى مؤسسات السلطة. وقد قوبِلَ القائمون بعملهم المستقلّ بردودِ أفعالٍ محبِطة من قِبل تلك المؤسسات.

ياسين: أيّ عمل؟

علي: أعني قضيةَ شباب منطقة «داريّا» قرب دمشق الذين قَرّروا تنظيفَ شوارع بلدتهم، ودعوةَ الناس إلى مكافحة الفساد وإلى الامتناع عن تلقي الرشوة وتدخين السجائر الأميركية.[1] وبغضّ النظر عن انتماءات هؤلاء الشباب، فإنّ العمل الذي قاموا به هو عمل مجتمعيّ سلمي، ولكنْ تمّ التعاملُ معهم بعقلية أمنية. وقد يُمْكن أن نتفهَّم الردَّ الذي وُجِهَ به شبابُ «داريّا،» إذ لا يُمْكن الانسحابُ من العقليّة التي حَكَمت المجتمعَ أربعين عامًا. صحيحٌ أنّ هناك بالفعل محاولةً للانسحاب من العقلية الأمنية، ولكنّ هذا الانسحاب سطحيٌّ وغيرُ مجدٍ ما دامت القوانينُ القامعةُ موجودةً. فلقد حاول «اتحادُ شبيبة الثورة،» مثلاً، الانفتاحَ على النشاط الأهلي، فقام منذ زمن طويل بإعادة الاعتبار إلى نشاط الكشّافة. ولكنّ هذا الانفتاح لم يأتِ بنتيجة، بسبب ارتهانِ المؤسسة أصلاً لقوانينَ قسرية تَحْكم المجتمعَ، كحالة الطوارئ أو قانونِ الأحكام العرفية. وعليه، فإنّ الشباب مازال، عمومًا، يخاف من صيغة المبادرة أو العمل الأهليّ لوجود مثل هذه القوانين.

رزان: أولاً أعتبر أنّ العزوفَ قسريّ، لا ذاتيٌّ من قِبل الشباب. وهنا أختلفُ مع علي في أنّ الأحزاب لا تجد شبابًا ينضمّون إليها، أو في أنّ الشباب يَنْفرون «من القيام بالعمل الأهلي.» فالحال أنّ الشباب المهتمين بالشأن العامّ لا يجدون الأُطرَ المناسبةَ، أي الأحزاب أو المنظّمات التي يُمْكن أن يَعْملوا من خلالها. بل إنّ الأطر الموجودة حاليًا تشكّل عاملَ **طردٍ** لهؤلاء الشباب.

وبسبب الوضع الأمني الضاغط، وعدم وجود الحماية القانونية لأية تنظيمات أهلية أو مبادرات شبابية، فإنّ الشباب لا يتمكّنون من إيجاد أُطُرهم الخاصة. هذا بالإضافة إلى انعدام الخبرة لأنّ الشباب سيبدأون من نقطة الصفر، بسبب غياب تجارب سابقة لهم.

ياسين: قد تكون مشكلةُ عزوف الشباب عن العمل السياسي، إذن، نتيجةَ مفهومٍ معيّنٍ للعمل السياسي لم يعدْ صالحًا؟

سعاد: العالم العربي عمومًا لم يَشْهدْ تجربةً سياسيةً ناجحةً قابلةً للاستمرار. والذي حالَ دون ذلك دخولُ العسكر إلى الميدان السياسي. واستمرّ ذلك عدةَ عقود، إلى أنْ انتقل العملُ السياسي من يد العسكر إلى يد الأمن. وقد أسَّسَ لهذا أولُ انقلاب عسكري عامَ ١٩٤٩ في سورية، قام به حسني الزعيم، وأَجهض جنينَ الدولة الحديثة. وللأسف، ربما لو كُتِب لذلك الجنينِ الحياةُ، لكانت سوريا ذاتَ نظام ديموقراطي.

ياسين: في الخمسينات والستينات كانت عندنا مشاركةٌ شبابيةٌ مهمة. وحتى السبعينات...

سعاد: أعتقد أنّه منذ الخمسينات بدأ العسكرُ بتهميش العمل السياسي والسياسيين. لقد تمّ طردُ المنطق والعقل السياسي، ليحلَّ مكانَه منطقُ القوة. وبالتالي باتت أيّةُ تجربةٍ سياسيةٍ محكومةً بالفشل. حتى الحزبُ الذي وصل إلى السلطة سلَكَ طريقَ الجيش، وربما حَقَّق نتائجَ ناجحةً بمعايير ذلك الوقت. لكنّ الحقيقة هي أنّه أقصى نفسَه عن العمل السياسي، وتَرَك

١ ـ جاء في بيان لمنظمة العفو الدولية في ٢٠٠٥/١١/٨ أنّ هؤلاء ناشطون اجتماعيون اعتُقلوا في أيار (مايو) ٢٠٠٣، وحُكم على محمد شحادة (خرّيج لغة إنكليزية) ومعتزّ مراد (مهندس) بالسجن لمدة ثلاث سنوات، وعلى هيثم الحموي (طبيب) ويحيى الشربجي (محاسب) بالسجن لمدة ٤ سنوات، بتهمة محاولة إنشاء تنظيم ديني، والمشاركة في أنشطة اجتماعية غير مرخّص بها، وحضور فصول دينية وفكرية غير مرخّص بها أيضًا.

سفر: قانون الطوارئ وَلَّدَ نفوراً عند كل الناس لا الشباب وحدهم، والمرجعية العليا في الأحزاب تَئِدُ أيّ نشاطٍ لا يخدم السلطة أو استمرارية الحزب

تجربتَه نهبًا للركود والفساد، حين اعتَبَرَ الوصولَ إلى السلطة مُنْجَزَه الأولَ والأخيرَ، وأنّه لا تُمْكن حمايةُ ذلك إلاّ عبر منع النشاط السياسي العامّ. فكان أن استقالَ المجتمعُ.

ياسين (مقاطعًا): استقال أمْ أُقيل؟

سعاد: سيّان، استقال أو دُفِعَ للاستقالة. المهمُّ النتيجة! أما بالنسبة إلى العمل الأهلي، فأنا لا أعتقد أنّ الشباب عازفون عنه. فالحقّ أنّه لم يحدث انقطاعٌ في العمل الأهلي، وإنما تراجعٌ كبيرٌ، أو خسوفٌ.

ياسين: ماذا تعنين بالعمل الأهلي؟

سعاد: هناك عملٌ أهلي اجتماعي لا علاقةَ له بالنشاط السياسي. وحسب معرفتي، فقد استمرّ نشاطُ المؤسسات الدينية في هذا المجال، وبالأخصّ الكنائس.

ياسين: قد يقتصر هذا على الوسط المسيحي وعلى النشاط الخيري؟

سعاد: ليست كلُّ الأنشطة خيريةً. فهناك نشاطاتٌ ذاتُ بعدٍ اجتماعي وثقافي وتربوي، وتُعبِّر عنها المخيّماتُ الصيفيةُ للأطفال والشباب. وأعتقد أنّ هناك مؤسساتٍ إسلاميةً تقوم بالشيء ذاته.

ياسين: هل يَصْلح هذا النشاطُ أرضيةً لعملٍ سياسي عامّ؟

سعاد: بالنسبة إلى الكنيسة لا يَصْلح نهائيّاً. فنشاطها محاولةٌ للحفاظ على الرعيّة، لا غير.

ياسين: قد يَخْدم هذا النشاطُ إبعادَ الشباب عن العمل السياسي، لا تقريبَهم منه؟

سعاد: بل هو وسيلةٌ لجذب الشباب إلى الدِّين، والحفاظ على المؤسسة الكنسيّة.

ياسين: لدينا منظماتٌ شبيبيةٌ في سورية، مثل «اتحاد شبيبة الثورة» الذي يضمّ مبدئيّاً كلَّ طلاب المدارس السورية من الصفّ السابع حتى الثانوية العامة. ولدينا «الاتحادُ الوطنيُّ لطلبة سوريا.» إلى أيّ مدى يُمْكن اعتبارُ هذه المنظّمات أشكالاً للعمل السياسي للشباب، لا أشكالاً لنزع العمل السياسي من الوسط الشابّ؟

علي: هذه المنظّمات تنتمي إلى صيغةٍ سياسيةٍ لإدارة المجتمع مرتبطةٍ بالسلطة السياسية، وظلّت محكومةً برؤية هذه السلطة لكيفية التعامل مع الشباب. ولذلك فأنا لا أستطيع أن أراهنَ على جيلٍ مبنيٍّ على رؤية أُحادية، أو رؤيةٍ تدير المجتمعَ بشكلٍ نمطيّ أو من خلال مجموعةِ شعارات. والموضوع لا يقتصر على «اتحاد شبيبة الثورة» أو «الاتحاد الوطني لطلبة سورية»؛ فالشيء نفسُه يَحْدث في المنظمات الموجودة عند أحزاب «الجبهة الوطنية التقدمية» التي تتعامل مع الشباب بالعقليّة ذاتها. فمقابلَ «اتحاد الشبيبة» الرسمي، هناك «اتحادُ الشباب الديموقراطي» عند الشيوعيين؛ والشيءُ المشترك بين المنظمتين يَكْمن في أنّهما بلا فعّالية ذاتية من غير الرجوع إلى المرجعية الحزبية العليا. وهذا في حدّ ذاتِه جزءٌ من فعل المُصادَرة لطاقات الشباب، التي يجب عدمُ تأطيرها. زدْ على ذلك أنّ المرجعية العليا في الحزب تَئِدُ أيّ فعّالية أو نشاطٍ لا يَخْدم السلطةَ أو استمراريةَ الحزب.

ياسين: هل كونُها منظّماتٍ مضادةً للحرية يعني أنّها ليست جاذبةً للشباب؟

علي: يمكنك أن تقول إنّ حريتها مؤطَّرة ومقوْنَنة، وبالتالي تتنافى مع أساس كلمة «الحرية.»

ياسين: هناك مفارقة: لدينا منظّمات شُغْلُها تسييسُ الشباب (وتسييسُ كلّ شيء). ومع هذا، فثمة شعورٌ عامّ بأنّ الشباب غيرُ مسيَّسين وبعيدون عن الحياة السياسية. ما رأيكم؟

رزان: ليْتَها تسيِّس الشبابَ! فلو فَعَلَتْ لقامت بمهمة إيجابية، لكنّ المشكلة أنّها تؤدلج وتقولبِ الشبابَ ضمن إطارٍ معيّن، وتزيدُ عددَ «العبّاد» لآلهةٍ معيّنة. هذه هي مهمةُ تلك المنظمات، لا السياسةُ ولا التسييسُ!

ندوة: الشباب السوري والمشاركة السياسية

سعاد: كافّةُ الأحزاب السياسية التي عرفناها كانت تعتمد في نشر أفكارها على تحشيد الجماهير وتجنيدِها كمجاميع ذات وظيفةٍ محدَّدةٍ سلفًا. وهذا يتنافى مع الطبيعة البشرية، لأنّه يُلغي التمايزَ الفكري والعقلي بين الأفراد. ومن باب الإنصاف ينبغي القولُ إنّ منظّمة «شبيبة الثورة» أو «منظمة طلائع البعث» [جميع تلاميذ المدارس الابتدائية] ليستا سيئتيْن بالمطلق. ففي البداية أدّتا مهمتَهما، ودَعَمَتا مواهبَ كثيرةً، ومَنَحتا فرصًا لظهور متفوقين ومبدعين من أطفالٍ وشبابِ الريفِ النائي وأبناءِ الطبقات الفقيرة.

ياسين: لكنّنا نتحدث عن دورهما السياسي؟

سعاد: أنا أتحدث عن الناحية العلمية. هناك أشياء إيجابية، لكنّ نسبتَها راحت تقلّ حتى تكاد تختفي، ضمن جوٍّ عامٍّ فاسد. ذلك أنّ مشكلة هذه المنظمات هي جزءٌ من مشكلة الحزب، وهي جزءٌ من مشكلة مؤسسات الدولة التي ضَرَبَها الفسادُ والمحسوبيات.

رزان: لكنّ هذه المنظمات تَنْتهك حقوقَ الطفل...

ياسين: هل لأنّ «الطلائع» و«الشبيبة» إجباريتان؟

سعاد (متدخّلةً): «الشبيبة» ليست إجباريةً، على الأقلّ من خلال تجربتي فيها.

رزان: كانت إجباريةً حين كنتُ طالبةً.

سعاد: كان هناك اعتقادٌ سائدٌ بأنّ الانتماء إلى الحزب يوفّر فرصًا للتوظيف، ويقي من شرّ المُخْبرين.

رزان: الطفل تحت ١٨ سنة لا يجوز تنسيبُه إلى أيّ منظمة. فهذا اعتداءٌ على حقّه في الاختيار حين يصير راشدًا. الانتساب الإجباري لهذه المنظمات خرقٌ فاضحٌ لحقوق الطفل.

ياسين: مفهوم، لكنّي مهتمّ بنوعية تأثير هذا الخرق على اهتمام الشباب بالعمل السياسي. هل ينفّر التنسيبُ الإجباريُّ إلى منظّمتي «الطلائع» و«الشبيبة» الأولادَ من الاهتمام بالقضايا العامّة؟

رزان: أعتقد أنّه لا ربطَ مباشرًا بين الأمرين. فالشباب الواعي يدرك أنّ هذه المنظّمات لا تمتّ بصلةٍ إلى العمل السياسي الحقيقي، وأنّ دورَها مجردُ عمليةِ تأطير.

ياسين: ونحن نتحدث عن تأثير الدولة والمنظّمات، أسألكم: إلى أيّ مدًى يتدخل الخوفُ لإبعاد الشباب عن العمل السياسي؟ تعلمون أنّ كلمة «سياسة» تثير فورًا تداعياتِ الخوف والرهبة.

علي: هذه حالة طارئة في حياة المجتمع السوري، إذ سبق لهذا المجتمع أن عاش في الماضي حالةً سياسية. لكنْ كلّما ارتبط العملُ السياسيُّ بالقمع تنامت ثقافةُ الخوف. وحالة الخوف من العمل السياسي تولّدتْ منذ بداية حكم السلطات التي استأثرتْ بقيادة المجتمع ولم تَسْمح للقوى الأخرى بأنْ تمارسَ فعّاليّاتها السياسية. وهذا ما جعل الناسَ ينكفئون عن السياسة؛ حتّى إنّ مَنْ عملوا فيها سابقًا صاروا يعيدون حساباتهم: فإذا كان هذا العملُ سيجعلهم عرضةً لدفع الضريبة، فإنّ من الأفضل تَرْكَه.

ياسين: أيّ ضريبة؟

علي: ضريبة القمع والسجون، مثلما حدث أيامَ الوحدة، إذ لم يكن مسموحًا العملُ السياسيُّ إلاّ عبر حزب واحد هو حزبُ السلطة، بل نَفَّذتْ سلطاتُ الوحدة «مآثرَ دمويّةً» بحقّ الأحزاب الأخرى ـ من الشيوعيين إلى القوميين السوريين مرورًا بالإخوان المسلمين. وحالة الانفراج التي تمت بعد الوحدة لم تكن كافيةً لأن يستعيد المجتمعُ السوريُّ حراكَه السياسي. وأمّا السلطة التي أتت بعد الوحدة فقد قامت بالشيء ذاته، فعشنا من سنة ١٩٦٣ حتى سنة ١٩٧٠ حالةً من القمع للقوى السياسية الأخرى. وكلُّ هذا التراكم أدّى إلى أن يَرْتبط العملُ السياسيُّ عندنا بالخوف.

ياسين: هل في جوابك نفسِه شيءٌ من الخوف؟ فقد تكلّمتَ عن الوحدة وعن فترة ١٩٦٣ـ١٩٧٠، ولكنّك أغْفلتَ ما بعدهما!

علي: ذلك ممكنٌ طبعًا! لكنّ علينا أن ننتبه إلى أنّ فترةَ ما بعد ١٩٧٠، ورغم حالة القمع، لم تلغِ العملَ السياسيَّ برمّته. فالقوى

زيتونة: على الشباب اليوم ألاّ يعوّلوا على الأحزاب، بل أن يخلقوا أُطُرَهم الذاتية للعمل العام

المقموعة كانت تلجأ إلى العمل في صفوف الشباب، ولكنْ تحت الأرض. ونحن نَذْكر أنّ الأعمال الإرهابية كان وقودَها الشبابُ الذين حُظر على القوى السياسية الرسمية، أحزابِ «الجبهة الوطنية التقدمية،» أن تَعْمل في أوساطهم. ورأيي الشخصي أنّ هذا مفصلٌ هامٌّ في تاريخ علاقة الشباب بالسياسة في سورية، إذ إنّ العديد من القوى السياسية رَفَضَتْ أن تَحْتكر قوى سياسةٌ واحدةٌ قطاعَ الشباب وانسحبتْ من «الجبهة» المذكورة بسبب هذا الأمر.

سعاد: احتُكِرَ العملُ السياسي في الأوساط الشبابية بهدف التعبئة، لا بهدف المشاركة السياسية.

علي: أنا أتحدث عن قوى سياسية مرخَّص لها بالعمل. هذه القوى لم تكن تفكّر بالتعبئة قدرَ تفكيرها بضرورة تفعيل العمل السياسي ضمن الشباب. وحين نَرْجع إلى الوثائق السياسية نرى أنّ الراحل الدكتور جمال الأتاسي، الذي أسهم إسهامًا كبيرًا في إنشاء «الجبهة،» كان يَعْرف أن حرمانَ القوى السياسية من العمل ضمن الجيل الشباب يعني تركَ الشباب عرضةً لأن يكونوا وقودًا للتيار الإسلامي المتطرف الذي كان يتنامى آنذاك. وهكذا نرى كيف أنّ أغلب مَنْ ساهم في حركة «الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين» كانوا من فئة الشباب. لقد كان ذلك نتيجةً طبيعيةً لقرار الاحتكار الرسمي للعمل السياسي ضمن قطاع الشباب.

ياسين: إلى أيّ مدًى تعتبرون الأحزابَ السياسيةَ المعارِضةَ مسؤولةً عن إبعاد المجتمع ككل عن السياسة، وليس فقط جيل الشاب؟

رزان: لا أَقْدر أن أطلبَ من الأحزاب أكثرَ من طاقتها. فلو نظرتَ إلى تاريخها، وإلى القمع الذي تعرّضتْ له، وإلى انقطاعها هي نفسِها عن السياسة بعد فترة القمع ودخولِها مرحلةَ سبات قسريّ، ثم انطلاقِها من النقطة التي توقَّفتْ عندها... إذا نظرتَ إلى كلّ ذلك، فإنّك لا تستطيع أن تَطْلب منها الكثير. أنا أتفهَّم تمامًا أنّها غيرُ قادرة على أن تَجْذب الشبابَ، بل ثمة أطرافٌ منها تشكّل عاملَ طردٍ للشباب. وأعتقد أنّ الشباب في المرحلة الحالية يجب ألاّ يعوّلوا على هذه الأحزاب، بل أن يَخْلقوا أُطُرَهم الذاتيةَ للعمل العامّ.

سعاد: لا يُمْكن تحميلُ المعارضة الموجودة الآن على الساحة المسؤوليةَ، إذ لم تَظْهر مؤثّراتُ حراكها بعدُ على جيل الشباب، مع مراعاة عدم وجود مناخ سياسي لذلك. إلاّ أنّ ثمة ملاحظةً شخصيةً تتعلق بالخوف من نزعة ثأرية تنطوي عليه بعضُ مقالاتٍ وبياناتٍ لأشخاصٍ معارضين.

ياسين: هل تعنين أنّه لو كان الخطابُ أقلَّ «ثأريةً» لكان أكثرَ جذبًا للشباب؟

سعاد: بالتأكيد. هناك مَنْ يقول إنّنا دفعنا ثمنًا غاليًا في الماضي، وهو كافٍ، ولسنا على استعداد لأن ندفعه ثانيةً من أجل تصفية حساباتٍ لم نكن طرفًا فيها.

رزان: هنا أخالفك الرأيَ يا سعاد. فالحاضر استمرارٌ للماضي لأنّ الماضي وملفّاته لم تنغلق، والجراح ما زالت تَنْزف، سواء قَصَدْنا قضيةَ المفقودين أو قضيةَ المعتقلين... إلخ. ثم إنّني لا أرى أيَّ مطلب «ثأري»؛ على العكس، كلُّ الجهات تنادي بطيّ صفحة الماضي والمصالحة الوطنية.

علي: كلُّ القوى السياسية السورية تتحدث الآن بنَفَسٍ غيرِ ثأريّ. أما بعض الأفراد، فأعتقد أنّهم حالاتٌ فردية.

سعاد: هناك أحزاب وأطراف سياسية ما تزال تنوء بأحمال الماضي، في حين أنّ الشباب أبناءُ المستقبل.

الشباب والدين

ياسين: ننتقل الآن إلى محور ثانٍ: الشباب والدين. ما هو مفهوم السياسة الذي يقترحه الدينُ على الشباب؟ هل يَجْذبهم إلى الميدان الوطني العامّ، أمْ يبعدهم عنه؟

علي: الأديان والطوائف في سورية لا تَطْرح العملَ الجماعي إلاّ من خلال العلاقة مع السلطة. والعمل السياسي، بوصفه فعاليةً

ندوة: الشباب السوري والمشاركة السياسية

قد تؤدّي لأن يتعارَضَ الفردُ مع السلطة، مرفوضٌ على المستوى الرسمي لرجال الدين. هذا على مستوى الظاهر والعلن. أما تحت الأرض، فقد دعا الإسلامُ السياسيُّ إلى نموذج يؤسلم المجتمعَ ويعيده إلى عهد الصحابة. وقد تعارَضَ مع السلطة، ومع أغلب القوى السياسية الأخرى. وفي الظروف الحالية، أظنّ أنّ الأديان عنصرٌ طاردٌ للسياسة.

رزان: أنا أخالف علي تمامًا. الإسلام حاليّاً يكاد يكون هو الجاذبَ الوحيدَ للشباب من أجل العمل في المجال السياسي. إنّه يستوعبهم حاليّاً أكثرَ من جميع التيارات الأخرى من ناصريين وشيوعيين...

ياسين: إلى أيّ مدًى تَقْدر هذه السياسةُ على توحيد الشباب السوري؟ وإلى أيّ مدًى هي سياسةٌ غيرُ طائفية؟

رزان: هي سياسةٌ طائفيةٌ بامتياز، هذا أولاً. ثانيًا، لمّا كان غيرَ مسموح حاليّاً لأحزاب إسلامية معتدلة بأن تَنْشطَ وتستقطبَ الشباب، فإنّ التيار المتطرّف هو الذي قد يستقطبهم. ونحن مجتمعٌ أغلبيتُه سنّيّة، وهناك صحوةٌ إسلاميةٌ وموجةٌ تديُّنٍ خلال السنوات القليلة الماضية، وقد تكون مناسبةً لاستقطاب الشباب.

ياسين: تريدين أن تقولي إنّ هناك نوعًا من تسييس الشباب يقرِّبهم من العنف والإرهاب؟

رزان: طبعًا. فحين تَقْمع السلطةُ التيّاراتِ العلنيةَ، ينفتح المجالُ أمام التنظيمات السرية كي تستقطب شبابًا. وهذه التيارات تكون دائمًا متمسكةً بالتعصب، بعيدةً عن الحداثة، لا تعني الديموقراطيةُ والحريةُ لها شيئًا على الإطلاق. ولا أودّ أن يُفْهم من كلامي أنّ الشباب السوري منخرطٌ بأغلبيته في تيارات أصولية أو ما شابَه، بل أودّ أن أحذِّر من أن تكون التياراتُ الأصوليةُ هي الأنجحَ في استقطاب الشباب، بسبب غياب الأطر المناسبة لعمل هؤلاء، وانعدام فرص الانخراط في النشاط السلمي الديموقراطي نتيجةً للأوضاع الأمنية الضاغطة.

ياسين: سعاد، إلى أيّ مدًى هناك اهتمامٌ بالشأن الوطني العامّ في أوساط الشباب المسيحي السوري؟

سعاد: الاهتمام بالشباب يَهْدف إلى حماية الطائفة من التلاشي والذوبان في النسيج الاجتماعي. والكنائس ـ وللّه الحمدُ ـ تعطي ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه! والشأنُ الوطنيُّ العامُّ سقفُه طاعةُ أولياء الأمر والنهي، وفي ختامِ قدّاس الأحد يتضرّع الكاهنُ لحماية هؤلاء الأولياء.

ياسين: المجتمع السوري متعددُ الأديان والإثنيات والمذاهب. تُرى، هل يؤثّر هذا التنوعُ على مفهوم الشباب للعمل السياسي؟ هل هو عاملٌ جاذبٌ للاهتمام بالشؤون السياسية السورية العامّة، أم هو عاملٌ مضعِفٌ ومنفِّر؟

علي: التعدد الطائفي في سورية لم يكن أبدًا معارضًا للسياسة؛ فالأحزاب السياسية التي نشأتْ في سورية كانت مبنيةً على التعدد في أغلبها، والحزبُ الوحيدُ الذي نشأ بشكل دينيّ هو الإخوان المسلمون. ورغم ذلك، يبيِّن تاريخُ الإخوان المسلمين ما قبل فترة الثمانينات أنّ علاقتهم كانت جيدةً مع الطوائف الأخرى؛ بل إنّهم في لحظةٍ تاريخية ما تحالفوا مع الشيوعيين. هذا التعدُّد كان عاملاً صحيّاً في زمن سابق. لكنْ مع انكفاء صيغة العمل السياسي العلني السِّلمي، صارت الطوائفُ حصونًا يلجأ إليها الشبابُ للدفاع عن أنفسهم، ولحماية شخصيّتهم.

ياسين: الشخصية المذهبية والطائفية؟

علي: نعم، فهي نوع من الهوية.

ياسين: هل نستنتج إذنْ أنّ الشباب السوري مسيَّس، لكنْ بنوع من السياسة تحت الوطنية، أيْ بنوع من السياسة الفئوية؟

علي: العصبية الطائفية أدنى من العصبية الوطنية التي تَجْمع الجميعَ تحت لوائها، وتؤدّي إلى إنكفاء المجتمع واستقالته من مهمة الحفاظ على وحدته، لأنّه لا يوجد قانونٌ يحمي الناسَ حين يقرّرون العملَ في الشأن العامّ.

سعاد: سوريا لم تَعْرف الطائفيةَ سابقًا على هذا النحو. فالطائفية بدأتْ تَظْهر بقوة كأحد تداعيات احتلال العراق وتقسيمِه على أساسٍ طائفيّ، إذ جرى تهشيمُ مفهوم «الوطنية.»

جروس: مرارة تجربة الثمانينات جعلت الابتعادَ عن السياسة رأسَ الحكمة لدى الآباء، والأبناءُ قبلوا ذلك لغيابِ تجربةٍ تُثْبت العكس

ياسين: مَن المسؤولُ عن ذلك؟

سعاد: ليس المهمّ مَن المسؤول الآن. المهم أنّنا أمام نتيجة يَلْعب في تذكيتها غيابُ القانون، والفسادُ. ففي ظلّ مناخ كهذا، ومع تدهور الوضع السياسي، يُضطرُّ الفردُ إلى حماية نفسه بالفئةِ التي ينتمي إليها: العائلة، العشيرة، الطائفة... إلخ.

الشباب والأسرة

ياسين: ننتقل إلى محور آخر، هو الشباب والأسرة. هل الأسرة السورية معاديةٌ للسياسة، أم إيجابيةٌ تجاهها؟ أيُّ مفهومٍ للسياسة تعطيه الأسرةُ السوريةُ لأبنائها؟

رزان: سأحكي عن المرحلة الحالية لأنّه ليست لديّ فكرةٌ واضحةٌ عن الوضع من قبل. الأسرة السورية هي السلطةُ القمعيةُ الثانيةُ بعد السلطة السياسية! هناك سلبية كبيرة ناتجةٌ عن عقود الخوف والقمع التي تعرّض لها المجتمع، وجيلنا [دون الثلاثين من العمر] لم يشهدْها لكنّها انتقلتْ إلينا من خلال أُسَرنا: الأب والأم والخال والعمّ، إذ تكاد لا توجد أُسرةٌ ليس فيها معتَقَلٌ أو مفقودٌ إلخ...، فَنَقَل إلينا أفرادُها إرثَ خوفهم مكثَّفًا، وبشكل يَشْمل كلَّ أشكال الإبداع في الحياة لا السياسة وحدها. وبذلك راحوا يحدِّدون لنا خطوطًا حمرًا، تمامًا كما تحدِّد السلطةُ خطوطَها الحمرَ للشعب.

ياسين: خطوطٌ حمرٌ للأُسرة السورية؟!

رزان: تمامًا. إذ ضِمْنَ الأُسرةِ مطلوبٌ منكَ فقط دراستُك وعملُك وأن تُنجبَ أولادًا. هذا ما تقرِّره الأُسرةُ السوريةُ. وما عدا ذلك، فإنّ كلَّ ما ينطوي على الإبداعِ وابتكارِ الهوية الذاتية منبوذٌ.

ياسين: الأسرةُ السورية معاديةٌ للسياسة ومحافظةٌ واستبداديةٌ؛ هذا ما تقوله رزان. ما رأيكم؟

علي: أنا أعتقد أنّ هناك تفاوتات. فلدى الأسرة في دمشق شكلُها للتعبير عن العمل السياسي تاريخيّاً، ولدى الأسرة في حلب شكلٌ آخر. وفي المقابل فإنّ لدى الأسرة في الريف شكلَها في التعبير عن السياسة: فهي كانت وما تزال تُرسل ابنَها إلى الجيش، وتَعتبر ذلك جزءًا من تمثيلها السياسي وجزءًا من الحماية.

ياسين: الهدف هو الحماية من «السياسة» أكثر ممّا هو البحث عن تمثيل؟

علي: أنا لا أرى الأسرةَ السوريةَ بلا تضاريس. لكنْ إذا أردتَ أن أناقش الوضعَ السياسي في البلد وتأثيرَه على هذا النشاط الأُسري، فإنّني أقول إنّ الأسرَ الريفية، أو الأسرَ ذاتَ المنشإ المديني، تتلاقى في خطٍّ واحدٍ يفيد بأنّ السياسة التي ترشِّحها الأسرةُ للشباب يجب ألاّ تتعارَضَ مع السلطة الحاكمة.

ياسين: هل نستطيع القولُ إنّ الأسرة السورية «ماشية الحيط الحيط، وتقول يا ربي السَّتْرة»؟

سعاد: بالعكس! الأسرة السورية لا تكتفي بتشجيع ابنها على العمل السياسي الآمن والالتحاق بالسلطة فحسب، وإنما تشجّعه على العمل المدرّ للمال والجاه والنفوذ أيضًا. والعكس صحيح في ما يخصُّ العملَ مع المعارضة، إذ تَعتبره الأسرةُ السوريةُ ضربًا من العبث المؤذي.

كذلك أتّفق مع رزان على مسألة تقييد الأُسرة للحريات، ولاسيَّما حرية الإبداع. وهذا التقييد أقسى على المرأة منه على الرجل، في مجتمع يَفْرض شرطَ «السّمعة الحسنة» للمنضوين تحت جناحه، والذي قد يستثني المبدعين لما لهم من تصرُّفاتٍ خارجةٍ عن المألوف. وهؤلاء لا ينالون الاحترامَ الاجتماعي ما لم يحقِّقوا منجَزًا يَمْنحهم حصانةً تَرْفعهم إلى ما فوق مستوى «الشبهات.»

ياسين: الأسرة السورية انتهازية، إذنْ؟

سعاد: أفضّل القولَ إنّها «انتفاعية» براغماتية.

علي: العديد من الأُسر السورية، وضِمْنَ فهمِها للعمل السياسي، ترجِّح كفّة الولاء التقليدي على كفّة حرية الاختيار. فهناك عائلة شيوعية، أو عائلة تنتمي تاريخيّاً إلى القوميين السوريين، أو عائلة

ندوة: الشباب السوري والمشاركة السياسية

تنتمي تاريخيّاً إلى الإخوان المسلمين، أو عائلة بعثية، أو عائلة ناصرية، إلخ. هذا نمط متوفر كثيرًا في سورية..

ياسين: أترى أنّ للأسرة السورية نظامَ حزبٍ واحدٍ مصغّرًا؟

علي: نعم. شيء كهذا!

سعاد: إنّها مسألة «برستيج». فقد يكون هناك نائبٌ في البرلمان، لا علاقة له بشيء سوى «السلْبطة،» ومع ذلك يَرْفع له المجتمعُ القبّعَة!

ياسين: فإنْ سُجِنَ؟

سعاد: يوصَفُ بـ «الأرعن» ويُقال إنّ «مخّه ناشف» أو عنيد، «حامل السلّم بالعرض،» يَجْلب لنفسه ولأهله المتاعب. أقول ذلك مع الاعتذار الشديد للسجناء.

ياسين: هل هناك مفهومٌ للاهتمام بالسياسة وبالشأن العامّ عند البنات مختلفٌ عن الشباب؟ كيف تقارنون بين العبء الذي تتحمّله البناتُ عندما يشتغلن بالشأن العامّ، وذاك الذي يُمْكن أن يتحمّلَه الشبّانُ الذكورُ؟

رزان: كل الظروف التي يتعرّض لها الشابُّ تكون مضاعَفَةً عند البنت: فهي غالبًا محاصَرَةٌ في أيّ نشاط اجتماعي تقوم به، فكيف إذا كان نشاطًا سياسيّاً قد تترتّب عليه مخاطرُ وتضحياتٌ؟!

علي: هناك تفاوتاتٌ هنا أيضًا. ليست المسألةُ صَبَّةَ باطون [إسمنت مسلّح]. فإذا قررتْ بنتٌ من البنات أن تَعْمل تحت لواء الحزب الحاكم، أو «منظمة شبيبة الثورة،» أو «الاتحاد الوطني لطلبة سوريا،» فهل سيكون الضغطُ عليها مضاعَفًا؟ لا أعتقد ذلك! رأيي أنّ المسألة لها علاقةٌ بالتوجّه السياسي الذي يختاره الشابُّ أو الفتاةُ.

ياسين: المقارنة المناسبة هي بين فتاةٍ قرّرت العملَ في الحزب الحاكم، وبين أخيها في الحزب نفسه. هل تختلف الضغوطُ أو الأعباءُ التي يواجهانها؟

علي: لا أرى فرقًا.

سعاد: عندما تخوض المرأةُ العملَ السياسيَّ إلى جانب الرجل، فإنّها تَدْفع الثمنَ مضاعَفًا من قِبل الأسرة والمجتمع، فلا ترحَمُها الشائعاتُ والنمائمُ التي تَطْعن في شرفها. حتى مَنْ يبخِّر لها من المقرَّبين يشكّك في أخلاقها، ولو ضمنيّاً!

علي: ألكونها امرأةً، أمْ لكونها تتمرأى [تَسْتعرض أو تَسْتخدم أنوثتَها] من خلال السلطة؟

سعاد: طبعًا لكونها امرأةً. ذلك لأنّ الرجل الذي يَسْتعرض ذكورتَه وفحولَته لا ينال القسطَ ذاتَه من الطعن والتجريح!

رزان: المجتمع ليس كما نتصوّر. المجتمع محافظ إلى درجة كبيرة، وأقسى بكثيرٍ ممّا يوحي. البنت محاصَرَة بسلاح اسمُه «الشرف» و«السمعة.» بمجرد خروجها مع شابّ مثلاً، ضمن علاقة العمل الذي تقوم به، يمكن أن يشكّل ذلك سلاحًا ضدَّها، أو اتهامًا لها؛ هذا من جهة. ومن جهة ثانية، يتحدّث علي عن دخول البنت الحزبَ الحاكمَ أو «الشبيبة».. إلخ. أنا لا أعتبر هذا نشاطًا سياسيّاً، أو نشاطًا عامّاً. النشاط السياسي هو أن تكون مثلاً في حزب معارض، أو في منظمة مدنية: الهلال الأحمر، الصليب الأحمر.. إلخ. أما الانضواء تحت إطار السلطة أو أحد تنظيماتها لمنفعةٍ شخصيةٍ، فهذا لا يُمْكن تسميتُه نشاطًا سياسيّاً أو عملاً عامّاً.

علي: هناك نموذج في المجتمع السوري، وأعني الفتيات اللواتي يعملن في إطار «القبيسيات.»[1] فهؤلاء يَقُمن بعملٍ عامّ، لا يتعارض أبدًا مع السلطة الأسرية، ولا مع السلطة المجتمعية التي تَحْكم. لكنْ ما الفرق بينهنّ وبين من يَعْملن في تنظيمات السلطة؟ فالأخيرات يشتغلن مع السلطة؛ وأما القبيسيات فيشتغلن ضمن قناةٍ لا تتعارض مع السلطة، وبالتالي تخفّ عليهنّ الضغوط.

١ ـ منظمة دينية (إسلامية) نسوية دمشقية، غير رسمية لكنْ غير محظورة. اسمُها مشتقٌّ من اسم رئيسته: منيرة القبيسي.

الحاج صالح: نسبة البطالة في سورية ٢٤٪ من قوّة العمل، ومعظم البطالة من نصيب الشباب

سعاد: هذا يتعلّق بتقديس المجتمع للدين. هناك أشخاص علمانيون، تحجَّبتْ بناتُهم أو زوجاتُهم رغمًا عنهم، واضطرُّوا إلى التنازل لرغباتهنّ كي لا يَرْذلهم المجتمعُ. أما العمل السياسي فغيرُ مقدّس، إنْ لم يكن سيِّئَ السمعة أيضًا. لذا عندما يَقْبل الأهلُ بعمل ابنتهم في السياسة يُعتبر ذلك تنازلاً يتمّ وفقَ شروط تراعي الإجابةَ، أولاً، عن سؤالٍ ما إذا كان المقابلُ الذي ستجنيه المرأةُ يستحقّ ذلك التنازلَ. وللأسف فإنّ المكاسب تُختزل دومًا بالمال والنفوذ. أتّفق مع رزان أنّ مجتمعنا قاسٍ كثيرًا على المرأة.

علي: المجتمع ليس كما تقولان يا جماعة!

سعاد: عندما يُعتقل الشابُّ فثمة مَنْ يعتبره بطلاً، وثمة مَنْ يقول إنّه مغفّل أو أضاع عمره عبثًا. لكنّ عندما تُعتقل المرأةُ يذهب تفكيرُ الناس نحو نوع **الانتهاكات** التي تعرّضتْ لها، ولو ضمنيّاً. والنتائج السلبية لا تعود عليها فقط، بل تَنْطبق على أسرتها لتَدْفع ثمنًا اجتماعيّاً مكلفًا يَدْخل في خانة «سوء التربية.»

الشباب والعمل

ياسين: محورنا الآن هو الشباب والعمل. في رأيكم، ما تأثيرُ فرصِ العملِ والدخلِ والمعيشةِ والزواجِ وبناءِ الأسرة على اهتمام الشباب بالعمل السياسي؟

رزان: لها أكبر الأثر، لأنّ أحد أهم أسباب ابتعاد الشباب عن الشأن العامّ هو البحث عن فرصةِ عملٍ مناسبةٍ وتأمينُ المستقبل ـ وهذا يأخذ وقتًا طويلاً. وحتى الشباب المهتمون بالعمل السياسي يَصْرفون الكثيرَ من الوقت لأجل تأمين لقمة العيش، على حساب نشاطهم وفاعليّتهم.

ياسين: يقال إنّ نسبة البطالة في سوريا ٢٤٪ من قوة العمل (الرقم منسوب إلى عبد الله الدردري، نائب رئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية)، ومعظمُ البطالة من نصيب الجيل الشابّ. هل يشدّ هذا الشرطُ الشبابَ إلى العمل السياسي، أمْ يَدْفعهم إلى الانكفاء عنه؟

علي: الأمر يتعلق بمستوى تطور وعي الشباب. فثمة شريحةٌ بَنَتْ حياتَها على إمكانية أن تحظى بالسلطة، وثمة شريحة ثانية تعانَي الأمّيّةَ ولا تمتلك أيةَ مهنة. هؤلاء شيء، وأولئك شيء آخر. الشريحة المتعلمة تعاني تدهورَ الوظائف الاجتماعية للدولة، وترهُّلَ نظام الإنتاج، الأمرُ الذي يَهْدر إمكانياتِهم التي يعوِّلون عليها من أجل تحقيق المكانة المطلوبة. بين هؤلاء أصواتٌ شابةٌ تطالب بالتغيير. لكنّ شريحة الشباب التي لم تتعلّم بل لجأتْ إلى مهن في القطاع غير المنظَّم بقيتْ أسيرةً لمرجعيةٍ دينيةٍ أو أُسريةٍ لا ترحِّب بفكرة العمل السياسي من أجل تحسين الوضع المعيشي.

ياسين: هل ترونْ فرصةً لاتساع اهتمام الشباب بالعمل السياسي اليوم؟

سعاد: هناك مشكلة كبيرة في سورية تتمثّل في وجود جزء كبير من الشباب خارج أيّ برنامج إصلاحي مستقبلي، وهم من الأمّيّين الذين لا يَمْلكون أيةَ كفاءاتٍ تؤهّلهم للانخراط في سوق العمل مستقبلاً، فيما لو توفّرتْ فرصُ عمل. هذا الجزء من الشباب يعيش في المناطق النائية الفقيرة والمناطق الحدودية التي تعتمد على التهريب لتحصيل العيش. كما يوجد جزء آخر من الشباب يحتاجون إلى إعادة تأهيل كي يتيسَّر انخراطُهم في برنامج الإصلاح إذا تمّ، وهم من خرّيجي الجامعات والمدارس الذين حَصَلوا على شهاداتٍ ورقيةٍ تؤهلهم للعمل في مؤسسات الدولة في وضعها المتردّي. وهذه الشرائح العريضة يَصْعب عليها خوضُ غمار العمل السياسي في المستقبل المنظور.

أما إذا صَدَرَ قانونُ أحزابٍ، واستقامت الحياةُ السياسية، وأصبح الفردُ شريكًا فيها ـ وهو غيرُ متوقَّعٍ قبل عشر سنوات على الأقل إذا كنّا متفائلين ـ فربما نستطيع عندها الحديثَ عن خوض الشباب للعمل السياسي. لكنّ الأولوية، حاليّاً، هي لتحسين المعيشة.

ياسين: في تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٣ إحصائياتٌ ونسبٌ مفزعة. فـ ٥١٪ من شريحة الشباب في ٦

ندوة: الشباب السوري والمشاركة السياسية

دول عربية، ممن تتراوح أعمارُهم بين ١٧ و٢١ سنة، يفكرون في الهجرة. والنسبة تبلغ ٤٥٪ ضمن الشريحة العمرية بين ١٤ و١٧ عامًا. ما هي أهم دوافع هجرة الشباب، وما تأثيرها في العمل العام؟

رزان: الفئة الغالبة التي تفكّر في الهجرة هي التي تبحث عن وضع اقتصادي أفضل. أما الفئة الثانية فهي التي تبحث عن إمكانية لتُثْبت ذاتَها ووجودَها، ولديها طاقةٌ وإمكاناتٌ لم تستوعبْها بلادُها، ولذلك تَبْحث عن بلد آخر تحقّق ذاتها فيه.

ياسين: بعض الجيل الشابّ يتعامل مع بلده كفندق!

رزان: أيُّ مكان يحسُّه الشابُّ ضيِّقًا على إمكانياته، فسيتعامل معه كمحطّة!

ياسين: لماذا لا يَطْرح الشبابُ على أنفسهم مهمةَ تغيير هذا الواقع بدلاً من الهروب منه، مرةً إلى الدين ومرةً إلى الخارج ومرةً بالانكفاء إلى الأسرة والقرابة والطائفة؟ أليست السياسةُ هي الحلّ؟

رزان: أعتقد أنّ الظروف التي تَخْلق هذه العطالةَ عند الشباب مازالت موجودةً بنسبة ٩٠ ٪، وهي الظروف الاقتصادية والأمنية والسياسية. وبالتالي فإنّ الإحساس بإمكانية التغيير ما زالت ضئيلة.

سعاد: الدافع الرئيسي لهجرة الشباب الذكور اقتصادي غالبًا، فيما يتقدّم عليه لدى الشابّاتِ عاملُ طلب الاستقلال عن مؤسسة الأسرة ـ فالحقّ أنّ مجتمعنا لا يُقرّ باستقلالية الفرد، ولا يعترف بحقّ ممارسة حرياته الشخصية. ولعلّ الانفتاح المذهل الذي نعيشه اليومَ يَدفع الشابَّ إلى البحث عن وسائل لممارسة حرياته الشخصية، حتى ولو بالخفاء. وقد يتمظهر ذلك في تفشّي ظاهرة الانحلال الاجتماعي، تحت السطح، في تواطؤٍ مجتمعيٍّ فاضح، بما يَخْلق حالةً من الازدواجية على صعيد المجتمع وعلى صعيد الفرد، وضمن حالةٍ مَرَضيّة تلتبس فيها المفاهيمُ والقيم. كلُّ ذلك يشكل بيئةً نابذةً لمن يَحْلم بأن يتصالح مع نفسه ومع محيطه، ومن الطبيعي أن يفكّر بالهجرة بحثًا عن مجتمع سليم وبيئة صحية يمكّنانه من تحقيق طموحاته.

علي: التاجرُ الأكبرُ في سورية هو الدولة، والصانع الأكبر هو الدولة، والعقول المتعلّمة التي كانت تَعْمل في جهاز الدولة هاجرتْ لأنّها لم تَقْدر أن تُصلح هذا الجهاز.

سعاد: لا شكّ في أنّ اختلالَ مفهوم المُواطنة هو أهمُّ عاملٍ في الهجرة. لقد تراجَع هذا المفهومُ عن السابق، ربما لأنّنا في زمن الاستقلالات كنّا في مرحلة صناعة وطن، وكنّا في حاجةٍ إلى بلورة هذا المفهوم. لكنْ منذ دخلنا زمنَ تدمير الأوطان وانتهاكِ كرامة المواطن، اختلّ هذا المفهوم.

التربية... والقُدْوة

ياسين: كيف يربّي الشبابُ بعضهم بعضًا في رأيكم؟ ما هي التربية السياسية التي يلقّنونها لبعضهم؟

علي: بنظري ليس هناك شباب يعلّمون السياسة!

ياسين: أكثرُنا تعلّم الاهتمامَ بالسياسة على أيدي شباب!

علي: أنت تعرف أنّ لدينا فجوةً ما بين جيل كان يتلمّس السياسةَ من جيلٍ سبقه، وبين جيلٍ أتى بعد ١٥ أو ١٦ سنة. وهذا الجيل الأخير غاب عنه النموذج.

ياسين: المثلُ الأعلى؟

علي: موقف هذا الجيل من العمل السياسي يتبدّى في غياب المثل الأعلى. فالنموذج المتاح أمامه هو نموذجٌ انتهازيٌّ، يأخذ موقعَه بقوة الولاء لا بقوة الفعل السياسي والكفاءة. هذا الجيل لا يَعْرف من العمل السياسي إلاّ هذا النموذج، وهذه مشكلة خطيرة. إنّ العبء الواقع على القوى السياسية كبير إذ يجب عليها أن تفكّر كيف تعيد انتماءها إلى مجتمع أغلبيتُه شابةٌ. فنحن لدينا ٧ أو ٨ ملايين من جيل الشباب أعمارُهم أقلّ من ٢٥ سنة. القوى السياسية الموجودة حاليّاً لا تفكّر بهذا الجيل أبدًا ولا تفكّر بمشاكله.

زيتونة: الطفل تحت ١٨ لا يجوز تنسيبُه إلى أيْ منظمة
سفر: نحن جيل بلا قدوات
جروس: حتى حزب البعث أقصى نفسه عن السياسة

ياسين: أهو جيل بلا قُدوات؟

علي: نعم، جيل بلا قُدوات، دون قوًى تعمل معه ومن أجله. هذا الجيل سوف يبقى عرضةً لعواملَ ومؤثّراتٍ خطيرة.

ياسين: ربما تكون لدى البعض من الجيل فكرةٌ سلبيةٌ عن العمل السياسي. قد يُقْنعون بعضَهم: «شو بدّك بالسياسة ووجع الراس؟»

رزان: هناك شيء من هذا القبيل، لكنْ ليس في أوساط الشباب المهتمة أصلاً بالسياسة، حيث هناك اتفاقٌ على الخطوط العريضة وإرادةٌ لعملٍ شيءٍ ما. بل أصبح ثمة نفورٌ من الرمز في الفئة التي لديها احتكاكٌ بالتنظيمات الموجودة. الشباب ليسوا بحاجة إلى قدوة، بل إلى شخصيات لديها كاريزما معينةٌ تساعد على تبلورِ تصوُّرِ الشباب للعمل العامّ.

ياسين: ولكنّ هناك شبابًا يضعون صورةَ غيفارا مثلاً.

رزان: أعتقد أنّ هذا موجود عند شباب أحزاب «الجبهة،» لأنّ هؤلاء الشباب موجودون في الأجواء التي يوجد فيها شبابُ «شبيبة الثورة» البعثية.

علي: هذا الجيل يتعاطى مع تشي غيفارا من خلال تأثّره بصورته العالمية كأيقونة، لا من خلال وعيه بظاهرته وبظروفها وانطباقها على شرطه الذاتي أو الموضوعي!

ياسين: ولكنْ هل يحدّ تماسُّ هذا الجيل مع ما هو خارج سوريّة من اهتمام الشباب بالشأن الوطني؟ وهل يتلاقى معه؟

علي: إذا نَظَرْنا إلى حجم المؤثّرات، كالفكر الفوضوي وتمظهراته في الغرب، نرى أنّ هناك شريحةً في سورية تأخذ هذه التمظهرات وتمارسها في البلد. فحين أكون أنا شابّاً عمري ٢٢ سنة وأعشق الأغاني الغربية، وحين أرى تظاهرةً ضدّ قتل الحيوان، أحاول أن أقوم بالشيء ذاته لأنّ شبابًا غربيّاً يقوم بذلك. ولكنْ حين تدعو قوى سياسية أو مجتمعية سورية لفعل الأمر ذاته يغيب الشبابُ عن التظاهرة!

سعاد: لكلّ جيلٍ قدوتُه، وليس من الضروري أن تكون القدوةُ سياسيةً. غياب القدوة الفكرية أو السياسية ذو علاقة بهاجسَ الشباب الذي يتمحور حول تحقيق الاستقلال الذاتي والتمتع بحق الحرية الشخصية. فالمشكلة الاجتماعية تطغى على نظيرتها السياسية. وبالتالي تصبح قدوةُ الشباب في التحرر هي «شباب ستار أكاديمي.»

ياسين: الحرية الشخصية منفصلة عن الحرية السياسية؟

سعاد: الوعي الشبابي الراهن لا يَرْبط بينهما. ثمة مشكلة ثقافية: شبابنا لا يقرأ ولا يَعْرف شيئًا عن الثقافة ولا السياسة، وبالأخصّ الشباب الصغار دون سنّ دخول الجامعة. إنّهم يفكرون في الحرية بشكل غريزيّ، إذ تعني لهم أولاً التخلُّصَ من سلطة الأسرة، ومن التبعية الاقتصادية لها؛ وتعني لهم ثانيًا التمردَ على المجتمع بارتداءِ ما يحلو لهم من أزياء وصرعات. وفي معمعانِ هذه المعركة، تبدو السياسةُ مستبعَدة.

ياسين: الشباب السوري لا يقرأ؟ هل هذا صحيح؟

علي: لا يجب التعاملُ مع هذا الشباب كقطيع. الشباب السوري ليس قطيعًا!

سعاد: عندما ترى في الشارع عشراتِ النُّسخ من هيفا وهبي [المطربة]، فماذا تسمّي هذا؟ أليس قطيعًا؟

ياسين: قطيع هيفاوات؟!

علي: هذا موجود في كلّ دول العالم!

هل من جديد؟

ياسين: المحور الأخير: هل من جديد في رأيكم في علاقة الشباب بالعمل العامّ والسياسة؟

علي: خلال السنوات الخمس الماضية تحوّل ميزانُ حركة الشباب: من شبابٍ منعزلٍ عن كلّ ما يحدث، إلى شبابٍ مطّلعٍ

ندوة: الشباب السوري والمشاركة السياسية

على ما يدور في العالم. أعتقد أنّ الشباب السوري لم يعشْ حالة الحرية، وهذا يجعل فاعليته أقلَّ من المجتمعات الأخرى. ولكنّي أعتقد أنّ الثورة الإعلامية، وثورة الانترنيت تحديدًا، ستجعله يدافع عن إمكانياته ليؤكّد أهليّته لأن يكون فاعلاً.

ياسين: لكنّ نسبة المشتركين بالإنترنيت ١٪ من السوريين!

علي: هذه هي النسبة الرسمية. مقاهي الإنترنيت فيها كثيرٌ من الشباب. حاليّاً نستطيع أن نتداول آلافَ المطبوعات خلال دقائق، وتعاطي المعلومات صار أسهل، وبآلياتٍ جدّ بسيطة.

رزان: الشباب حاليّاً بعيد عن السياسة، ولكنّ هذا لا يعني أنّه غير مهتمّ بها. الشباب السوري حاليّاً محظوظ جداً لأنّه وُجِد في عصر الإنترنت؛ إنّه أجمل اختراع في العالم. الشباب الذي يتابع ويهتمّ ويَطّبع ما يقرأ في الإنترنت ويَحْصل على المعلومة وينشرها: هؤلاء مشاريعُ سياسيين للمستقبل.

سعاد: أريد أن أميِّز هنا بين عدة شرائح شبابية. الأولى ما قبل سنّ الجامعة، وهذه ليست لأفرادها اهتماماتٌ سياسية، وخاصةً إذا كانوا من أبناء المناطق النائية، ولكنْ يُمْكن استثناءُ فئة قليلة منهم تنتمي عادةً إلى أُسَرٍ تهتمّ بالثقافة والسياسة. الشريحة الثانية هي الشباب الجامعي ومَنْ تتراوح أعمارُهم بين ٢٦ و٣٥ سنة، وأغلبُهم يتركّز في المدن الكبرى كدمشق وحلب، وهم يهتمُّون بالشأن العامّ، ويتفاعلون بشكل جيد جداً مع المتغيرات، ولهم تطلُّعات وأفكار وثقافة خاصةٌ بهم، على نحوٍ لا نتوقّعه.

ياسين: وهذا شيء جيد من أجل مستقبل سورية..

سعاد: التطور حتمي. قد يتطلّب الأمرُ مزيدًا من الوقت، لكنّه حاصلٌ لا محالة.

ياسين: هل أنتِ متفائلةٌ بالشباب السوري؟

سعاد: الانغماس في التفاصيل يجعلني أبالغ في التشاؤم. لكنْ، بالنظر إلى المشهد العامّ، أتفاءل بأنّ القادم أفضل.

علي: أنا متفائل! هناك تكلُّسٌ عند الشباب، وهذا له علاقة بتحكّم الدولة بمفاصل المجتمع بشكل أساسي. لكنْ، مع تحوّل المجتمع باتجاه الديموقراطية، سيكون الوضع أفضل. أنا متفائل جداً بهذا الجيل.

رزان: أنا متفائلة!

ياسين: كأنّ العامل الحاسم في تفاؤلكم هو التكنولوجيا؟

سعاد: أراهن على إعادة الاعتبار لتشغيل العقل.

ياسين: لن أختم هذه الندوة دون سؤال عن الوضع الحالي وما يكتنفه من توتُّرات وضغوط ومجهولات كبيرة. أيُّ تأثير للأوضاع الحالية في سوريا وحولها على اهتمام الشباب السوري بالسياسة والشأن العامّ؟

رزان: الشباب بانتظار شيء ما، ربما بانتظار الشيء الذي ما استطاعوا هم أنفسُهم أن يعملوه!

علي: بالإضافة إلى ما قالته رزان، يبدو أنّ سنة ٢٠٠٥ كانت حافلةً بعوامل مؤثِّرة كَسَرتْ مجموعةً من الخطوط الحمر عند الشباب، وعند كل فئات المجتمع.

سعاد: بل منذ صارت أميركا جارتَنا، تكسّرتْ خطوطٌ حمرٌ كثيرةٌ، و«فاتت بالحيط» أشياءُ أكثرُ.

علي سفر:
شاعر ومخرج تلفزيوني سوري.

سعاد جروس:
كاتبة صحفية سورية شابّة. مراسلة جريدة **الكفاح العربي** اللبنانية، ومديرة تحرير مجلة **شبابلك** الشهرية السورية المستقلّة.

رزان زيتونة:
محامية وناشطة حقوقية شابّة، وكاتبة من سوريا.

ياسين الحاج صالح:
كاتب سوري.